إخطارُ الدارس بأخطارِ المدارس

دراسة تربوية اجتماعية

ديــوان العـرب للنشــر والتــوزيع

عنـــوان الكتاب: إخطارُ الدارس بأخطارِ المدارس
اســـم المـؤلف: مجاهد المومني
التصنيف الأدبي: دراسة تربوية اجتماعية

رقم الإيـــــداع: 13564 / 2024

الترقيـــم الدولي: 7 - 958 - 998 - 977 – 978

التدقيــق اللغوي: مجاهد المومني
تـصـميـم الغلاف: رانيـا السفـوت
التنسيق الداخلي: محمد وجـيـــه
رقـــم الطـبـعـة: الطبعة الأولـى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر – بورسعيد

تليفون: 00201030502390
dewanalarabegypt@gmail.com

إخطارُ الدارس بأخطارِ المدارس

دراسة تربوية اجتماعية

مجاهد المومني

ديوان العرب للنشر والتوزيع

بيان فساد التعليم الرأسمالي

مقدمة

بسم الله الرَّزاق العليم والصلاة على رسوله الكريم أما بعد، فإنه قد عمَّ البلاء، ونَكَدَ العيش، وانتشر الفساد والفقر والكساد، وأُضيعَت الأَعْمار، وأُشغِلَ الناسُ بطَلَب الرزق القَليل عن طَلَبِ الرزق الجَزيل حتى صاروا كالعبيد! فلم تَزِد الأرزاق ولم تتحرَّر الأعناق، قد إنشغل العُقَلاءُ عن التَفَقُّهِ فحاروا، وانشغل الفُقَهاءُ عن التَّعقُّلِ فجاروا، وإن الحقَّ عزيزٌ عن كلِّ مستكبر، ولا بدَّ لمن صدق في طلبه أن يتواضعَ عن رأيه ويتفهَّمَ من غيره ويتشاوِرَ مع ذوي العقول الذين لا غِنى لصاحبِ العقلِ عنهم،"وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ"، "وَإِنَّا أو إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أو فِي ضَلالٍ مُبِينٍ"، وكلٌّ ضالٍّ عن الحقِّ إمّا أن يكونَ مُسْتكبِرا عنيدا عَرَفَ وحَرَف أو مُنْصَرِفا عن البحثِ لِكَسَلٍ أو طَمَعٍ فلم يجتهد بالسؤال أعاذنا الله من ذلك و جنَّبَنا عواقِبَه من خراب الدُّنيا و الدِّين وأرنا الحقَّ و رَزَقنا اتِّباعه.

وقد وَجَبَ على من ظنَّ مَعْرِفَةَ علمٍ نافعٍ قد غَفِلَ عنه الناسُ ان يُعَرِّفَهم به واجبَ من يطلبُ الحقَّ لنفسه سواء بسواء، أمراً بالمعروف و نهيا عن المنكر، نَفْعاً وانْتِفاعا، والإنسانُ محبٌّ لنفسه ويتلقَّف ما يصل إلى عقله أولاً ويكتفي به ويقتَنِع، ثم لا يحبُّ ان يُخَطَّأ تثاقُلاً من وجوبِ بذلِ جهدٍ جديدٍ في البحث عن الحقِّ وخوفا من إنتقادِ من لا يعرفُ فضيلةَ طَلَبِ الحقِّ و تَرْكِ الباطل، وعلى من أراد النصح في شأنٍ طَلَبُ عُلومِه، وأصدق النصيحة ما يشهد به أهل الشأن عن واقع أنفُسِهم فيَعِظون غيرهم فيه " وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ".

وإنّي لمُقدِمٌ على انتِقادِ معلومٍ أَلِفَه الناسُ لنفسِهم و لأولادِهم وتعودوه حتى ظَنُّوا عِصمَتهُ وأنْ لا خَير في غَيره، وحَقيقته انَّه هو القليلُ الخيرِ و إنْ أظهَره، الكثيرُ الشَّرِّ وإنْ أضْمَره، فَوجَبَ عليَّ التَّقديمُ بمُقدِّماتٍ تمهِّد لما بعدها و تُعينُ على تَقبُّله.

فاني من أبناء هذه الأُمَّة أرجو ما يرجون وأكره ما يكرهون، وحبُّ العلم موروثٌ في أمَّتنا التي تعظمه في آدابها ويطلبه من كل وجه بنوها، فعند ما عرف الناس انَّ طريق العلمِ المدارسُ ثمَّ الجامعاتُ دفعوا فيهما أبنائَهم واسترخصوا في سبيلِ ذلك أموالَهم.

وقد دُفِعتُ مع المدفوعين على سكَّةِ المدرسةِ فالجامعةِ، لمْ أحرفْ عنها و لم أعرفْ غيرها، بلِ التزمتُ قواعدَها و تعقيداتها وسهرت على شتات علومها حتى برعت في الانقياد لها وكنت من أهلها.

وقد كان يدور بين الفتيان والشباب في المدارس تساؤلاتٌ بريئة أنْ ما نفعُ كلِّ هذا الكثير المُعَقَّد من العلوم؟ فما كان الجواب إلا صرفنا عن الإهمال و حثَّنا على الجِدّ، إلا انَّه يوشك ان يكبر الصِّغار و تكبر معهم تساؤلاتهم، وقد تخصصت بعد دراسة الطبِّ في الجامعة في علم الجراحة، فصدَّقَ الحال ما كان من المقال، فكنت أسألُ زملائيَ الاطباءَ عن قَدْرِ نَفْعِ ما درسوه في المدارس والجامعات لتخصصهم الذي يعملون به فكان إجماعُهم على ضآلةِ نفعِهِ ونسيانِ مُعظمِه، ثمَّ استطردت إلى المهندسين وغيرهم من أصحاب العلوم و الحرف اسأَلُهم فأجابوا مثل الجواب الأول، لمْ يخالف إلا بعضُ الذين لم يلتزموا طريق المدارس و الجامعات إلى آخِرِه لأنهم يتورعون عن الخوض فيما لم يجربوه كلَّه و يبغضون نقده ويظنون فيه الخلاص، وكثيرٌ منهم فقراءُ يَرجونَ غِنى أبنائهم، وكلُّ الناس يشتكون فساداً في

حالهم وضيقاً في صدرهم، و لا يلزمُ كثيرُ نقاشٍ حتى يظهرَ أنَّ سببَ كلِّ فسادٍ يشكوه الناسُ يرجعُ أصلُه إلى بناء النظام التعليمي و سيرد تفصيل ذلك في قادم الكلام ان شاء الله.

يبدأ الكتاب بذكر تاريخ التعليم وأسباب نهضته و أسباب تأخيره، والَّذين وَقَفوا عدوّا لتقدُّمِه قديما وحديثا، ثم يعرضُ حيلَ مُعيقيه من الطمّاعين الانانيين وحُجَجَهم لما فعلوا وكيف قادت أفعالُهم وحِيلُهم إلى إفقارِ الناس وإفسادِ أخلاقهم بالدليل والبرهان، رجعتُ إلى ما كُتِبَ في العلم و التعليم حديثا و قديما من أخبار العرب والعجم وما فيها من الهداية و العبر، واطلعت على علم النفس الحديث ورأيه بالنظام التعليمي القَهريّ العامِّ و أَثَرِه على أخلاقِ الناس وشقاءِ العيش، ورأيِ خبراءِ التجارةِ و المالِ بالتعليم، ثم عرضت خلاصةَ نقاشِ ذوي الرأيِ من أصحابِ التخصصاتِ المتنوعةِ لحلِّ العُقَدِ والمشاكل ووضْعِ الخططِ والبدائل، فكان هذا الكتاب الذي نرجو بعون الله أن يكون فيه كشفُ الداء ووصفُ الدواء، نقذفُ الباطلَ بالحججِ القويّةِ الدّامغةِ مكتوبةً بلطيفِ العبارةِ مهتديةً بنورِ الإسلامِ لإخراجِ الناسِ من شقائِهم و تحريرِهم من عبوديَّة النِّظام الرأسمالي بخططٍ واضِحَةٍ كاسِحَة.

****

تاريخ تقدم العلوم ومسهلاته و معرقلاته

قام جابر ابن عبد الله في القرن السابع مترحِّلاً من أرض الحجاز إلى أرض الشام طلبا لحديث واحد يريد ان يسمعه من راويه و يخلِّده في كتاب، فقام على بعيره و انطلق في رحلة طويلة ستاخذ من عمره شهرا، يعبر واسع الصحاري وموحش البراري و هو يتامل خلق الله حوله من سماء وهواء وما فيها من طير، يسلو بذلك عن مشقة السفر، فلعله خطرت له خاطرةٌ لو ان له جناحان يطير بهما حيث أراد كمثل هذه الطيور السريعة السعيدة لتمكن من أخذ الحديث وغيره في أقل من شهر.

لم يدرك جابر رحمه الله و امم من قبله و من بعده طيورا حديدية تحمل الناس من أقصى الأرض إلى اقصاها في يوم، بل لو انه أُخبِر انه محاط بموجات مغناطيسية لا يراها يمكن ان تطوَّع ليتصل مع صاحبه في الشام وهو بالحجاز من لحظته لتبسم عجبا و قال فرحا " ان الله على كل شيء قدير"

وكأن مارتن لوثر و جون هاس ينظران الينا راضيان و قد تحقق حلمهم في حرية كل انسان ليقرا و يفهم ما يشاء بعقله دون وصاية من غيره عليه أو تحقير له

وقد عَرَف العالم الايطالي جوردانو برونو في القرن السادس عشر قدرة العلم الصادق على نفع الناس فرفض التخلي عنه رغم كل تهديد، و لعله وهو يحترق معاقبا مصلوبا قد أُري نتاج صبره و رأى البشر على القمر يقفزون و يقفز الناس على الأرض فرحا ففرح معهم و هو يحترق فسكنت نفسه و سلت عن الم النار جوارحه

لو ان الملوك الغابرين ممن اتفقوا على حب الدنيا واختلفوا على حب العلم رأوا ما ينعم به فقراء اليوم لحسدوهم وازدروا ماهم فيه من ترف لا نعيم فيه ولانصرفوا يطلبون العلم الذي يبلغهم النعيم الصادق

ولو ان هولاكو لما احرق بيت الحكمة كان يعرف ان سياتي يوم يصبح فيه كل بيتٍ بيتَ الحكمة وانه لن يمنع العلم مهما عظم جيشه وزاد حقده لاحبط هو و غيره من كارهي العلم المتسلطين على رقاب الناس

و يا لِحسرة الافارقة في القرن الخامس عشر لما أُخترعت الطابعة في اوروبا وهم يتحاربون و يحرقُ أحد ملوكهم الاشقياء و اسمه سني علي ملك امبراطورية سونغهاي مكتبة تمبكتو، فلو انهم رأوا الجيوش الأوروبية من بعدُ يأتونهم بأسلحة من صنع العلم و المكتبات لا قبل لهم بها، يُذبَح ابطالهم رميا بالرصاص من بعيد ولا يشاك ذابحهم فيموتون قهرا قبل ان تنزفَ دماؤهم.

****

تحصيل العلم

ما زال الإنسان يتقدم في العلوم في كل زمان منذ العصور القديمة إلى عصرنا هذا تقدما تراكميا متدرجا يتسارع حينا و يتباطأ حينا.

وتعلُّم العلم هو تراكم المعارف في نفس طالب العلم، غير انه ربما استغرق اكتشاف معرفة واحدة عمر العالِم كله تأملا وتجريبا، ثم هم يلخصون معرفتَهم هذه جاهزة لتلاميذهم مبسطة يتعلَّمها حذاق التلاميذ سريعا ويستخدمونها لاكتشاف معرفة جديدة يبني عليها مَن بعدهم مِن تلامذتهم.

غير ان آفة العلم النسيان وقد نُسيَت كثير من العلوم القديمة عندما كانت الكتب مخطوطات من عصر السومريين إلى عصر الكتب الكثيرة والطباعة، وما اكثر ما فُقِدت مخطوطات كان قد انتهى اليها تقدم العلم، غالبا بسبب طواغيت مجرمين جهلة مجهِّلين يرون في حرق العلم نصرا، فينقطع التراكم العلمي و يعود علماء جديدون يضيعون اعمارهم لاكتشاف المُكتشَف، و ذو الحظ من العلماء من وقع على مخطوط من كتابات العلماء السابقين ففرح به واحتفل و استوعب ما فية ثم أفنى عمره ليبني عليه نتاج بحثه وخلاصة تفكيره ويكتب هو مخطوطا يريح به من يقرأُه و يسهِّل له طريقا لاكتشاف الجديد الغامض.

وقد ظل تقدم العلوم بطيئا لقلة الحاصلين على المخطوطات و ما فيها من محصول المعارف حتى لحظة فاصلة في تاريخ الدنيا، عندما اخترع الألماني يوهان غوتنبرغ الطابعة في القرن الخامس عشر، فكثرت الكتب وقلّ سعرها فاقبل

الناس عليها و اخذ ما فيها والبناء عليه وكثرت العقول الباحثة المتوارثة فتسارع تراكم العلم و اضطرد.

فتعلم الناس عن صنوف المعادن والخامات و طبائعها و تفاعلاتها، وكان آخرها ما كان من اكتشاف الفحم والنفط والكهرباء وموصِّلاتها وغيرها، وقد أحسن الإنسان مراقبة التفاعلات بين مكونات هذه الخامات و ما ينتج عنها من تحولات وحركات وموجات، ثم أحسن استخدامها في مصلحته، فقدَّر آثار التفاعلات عن طريق التجريب المتكرر والملاحظة مقاديرا يمكن حسابها حسابا دقيقا، كتب فيها القوانين الحسابية التي تحكم هذه التفاعلات بما يسهِّل استخدام القوانين من كل طالب علم.

ثم كان إذا اكتشف باحث شيئا جديدا أذاع به لغيره مسطورا في ورقه علمية تطبع و تنشر، ومجهورا في جموع الباحثين في القاعات والمجالس، فيجرب الحاضرون بأنفسهم اخر ما اكتُشِف، و يستفيدون منه في البحث عن علوم جديده.

ثمّ رخصت السلع و وَفَرَت الكتب للغني و الفقير، بل حتى لقد يَسُرَ الأخذ عن العلماء عيانا على الشاشات وانْ بعدوا إلى أطراف الأرض أو كانوا في زمن مضى، فصار تعليم الناس جميعا غنيِهم و فقيرِهم أحسَنَ تعليم و أنفعه واجبا سهل التنفيذ.

كثر العلماء و فاضت العلوم و عمَّ نفعها، لقد كانت علوم الأرض كلُّها قبل الطابعة قد يحصيها العالم الواحد، فلمّا فاضت استحال حصرها في عقل واحد فكان لا بد من اختصاص كلِّ عالمٍ بفرعٍ من العلم ليجمعَ في نفسه ما كان من

تراكم المعارف السابقة إلى آخر ما وصل له غيره في ذلك العلم، ثم يبني هو عليها، وقد يأتي يومٌ يصل فيه الإنسان محدودُ الاجل حدَّه منَ التَّعلُّم لكثرة العلوم المعروفة في كلِّ تخصص و اللازمةِ ليكتشف معرفة جديدة في ذلك التخصص، وينشغلُ طالبُ العلمِ كلَّ عمره في تحصيل كثير العلوم الضرورية للاجتهاد فلا يتَّسع العمرُ لكَشْفِ علومٍ جديدةٍ، غير ان هذا لا زال بعيدا اذا أحسنَ طالب العلم تنظيمَ وقته و التخصصَ في عِلْمِه.

****

أصل المدارس و الجامعات

لقد نشأت الجامعات كملحق للكنيسة في القرن الثالث عشر حالها حال الكتاتيب و حلقات المساجد والمكتبات العامَّة عند المسلمين، كان يجتمع فيها أهل العلم طلابا وتلاميذ وكانت تدرس فيها العلوم الدينيه و بعض العلوم الدنيوية و يعطي متقن العلم شهادة يشهد بها لتلميذه باتقان العلم.

فلما تنوعت العلوم وتوسعت اصبح لكل علم من المجيدين له الملمين بجوانبه الباحثين عن خفاياه، وأصبح تخصص الطالب في علم واحد صفة المجتمع المتحضر لعظم مقدار المعلومات في التخصص الواحد، وسُميت الدرجات العلمية على قدر اتقان الطالب العلم، وقد كان مثل هذه الأنظمة أو شبيها لها في كل الحضارات السابقة، تشابهت الحاجة واختلفت الأسماء، ذلك أن حاجة الناس للعمارة والتطبب والصناعة والزراعة والقضاء وغيرها من حاجات الإنسان موجودة في كل عصر، ومعه تكون الحاجة لمتقنين يقومون على استخدام المعرفة في نفع الناس ثمَّ توريث علومهم لمتقنين بعدهم بالتعليم و التلقين و التدريب، ومنح الشهادة أو الاجازة.

****

هدف المدارس

وقد كان كثير من الأمم القوية في الماضي يحرِصون على تعليم أبنائهم وتلقينهم الولاء و الوفاء لامتهم و البراء من عدوهم، و يعلمونهم بالحجج المقنعة لضمائرهم ان الخير فيهم و في أجدادهم و مبادئهم، ليبقوا أمّة متحدة عند الشدائد و ثابتة عند الحروب، وكلما ضعفت حجة الفكرة و بَعُد مبدأ الأمّة عن الحق لزم وقتٌ أطول و جهدٌ أعظم لتلقين النشئ المبدأَ و تأَوُّلِ الحججِ له من كل مكان حتى يتحول حقا في نفوسهم، وكثر استخدام التقارب في النسب حجة لتوحيد الناس وجلب الولاء للحاكم و انكار الشعوب الأخرى، غير أن الناس بفطرتهم يأنسون ببعضهم و لو تباعد النسب، فإنهم كلهم أقارب عند أحد الأجداد أو الجدات، وكُلَّما قَرُبَ النسب قلّ عدد الناس، وكلما تكاثر الناس بعدت أنسابهم وقلَّ أثرها في النفوس، فكان قُرْب النسب وان قَوِيَ لا يكفي أحياناً ليكون عقيدة مثبتة للأمم الكبيرة القوية، وكانت الأمم الغابرة مثل السومريين والأشوريين والبابليين والفينيقيين والفراعنة والرومان واليونان والفرس والعرب و غيرهم ربما ابتدعوا آلهة من الأصنام وأرواح الأجداد ليجمع شعبَهم دينٌ يعتقدونه يثبِّت أقدامهم ويضمن ولائهم و يريح نفوسهم، فيتقاتلون كلٌّ في سبيل إلهه و أمته فيعزُّ حكامهم و يُترَف أسيادهم.

فكان اليونان يتبنون الفلسفة والحرية مبدأ يوجِّه مناهِجم وهوية توحد قلوبهم، و استعانوا بأجدادهم و آلهتهم ليجعلوا هويتهم ومبادئهم ديناً وعقيدة في نفوس أبنائهم، يتعلَّمونها قبل علوم الطبيعة.

وكان الرومان يُعلِّمون أبنائهم انهم أهل القانون و الحضارة و القوة، يقرأوّن على ابنائهم من قصص آلهتهم و أبطالهم الغابرين ليقتدوا بهم و يحاربوا الأغيار ممن ليس على قدرهم و يكفر بآلهتهم، ثم بعد تعلم كل ذلك يعلمونهم الفروسية والقتال وعلوم الهندسة و سائر علوم الطبيعة و الآلة، لكي لا يتبع الفارس الروماني أي صاحب فكره ولا يرتجف قلبه لاي دعاية ولا ينقلب مع عدوهم عليهم، فكان الرومان من أثبت الناس في المعارك، إلى أن جائت فكرة أقوى حجة و أثبت موقفا عند انتشار دعوة المسيح عليه السلام، فخافها الرومان وعرفوا قوتها ولم يستطيعوا الانغلاق دونها وهي في داخل بلادهم، حاولوا حربها بالجدال والقتال فلم يقدروا عليها، لان الدعوة ذات الحجة اذا دخلت أذنا عاقلة تكون أقوى من الحديد والنار فهي تدخل القلوب و تستتبعها اليها، فتتغير الولاءات و تنقلب القوات، فأدرك ذلك حكماء الروم قبل الفوات، وتبنوها لهم قبل ان يتبناها غيرهم فيهزمهم بها في عهد الامبراطور قسطنطين فكان له الظفر والنصر و لمن خلفه إلى حين.

ثم عندما كان مثبِّت القلوب عقيدةً قويَّةً بذاتها و لا حاجة لتكرارها على النفوس سنينا لتُقبَل دينا و تعتقد منهاجا مثل الأديان الضعيفة، تناقص الاهتمام بتعليم العوام و الجنود و اقتصر على الرهبان في الكنائس، إلى ان مُنِعَت ترجمةُ الانجيل من الاتينية إلى اللُّغات التي يستعملها عوامّ الناس، مع أن الانجيل الاتيني ترجمة للغة الآراميَّة و العبريَّة و الاغريقيَّة القديمة التي كُتِب بها الانجيل أوَّل مرَّة، إنما كان المنع لكي لا يتفكر الناس بالنصوص و يخالفوا ما اختاره وليُّ أمرهم من تأويلها فيكون بذلك تفرُّق الناس، و قد نُكِّلَ بمن حاول ترجمة الإنجيل عن

اللّاتينية، و اعتبره علماء السلاطين مهرطقا، و قد حُرِق بعضهم أحياءً أمام النّاس مثل جون هاس و جون ويكليف في القرن الرابع و الخامس عشر عقوبةً على الترجمة و ما يتبعها من كشف بعض اجتهادات الكنيسة للناس و التي ليست من الإنجيل، فكان هذا الإحتكار للعلوم و منعه عن الناسِ من أسباب تأخير مشاركة الأمم الأوروبية في تقدم العلم فترة من الزمان.

إلا ان الفَرَج لا بد آت إنَّما ينتظر أنْ تتهيأ له أسبابُه، وأهمُّ أسبابه ثبات أصحاب الحقِّ على حقِّهم، والفكر لا يحرقه إلا فكر مثله و لا يحترق بالنار، و كان من أسباب الفَرَج اختراع غوتنبرغ الطابعة و وانتشار الكتب، و قد أقنَعَ غوتنبرغ الكنيسةَ بسياسةٍ و دهاءٍ ليتقبَّلوا اختراعه و يتركوا حربه، فجاء لهم بصكوك غفران مُنَمَّقة جميلة و أنَّ اختراعه قادر على إنتاج الكثير منها.

ثمَّ تقدَّم من لن يقدر عليه أعداؤه لإنصاف الناس و إعطائهم حقهم في القرائة و التفكير و اختيار المعتقد، فتَرجَم الانجيلَ للغة الجرمانية مَن سيكون مِن بعده ملايين الاتباع و ثورة في الفكر في القرن السادس عشر، أخلص مارتن لوثر لمن قُتلوا قبله وأكمل عنهم ثمَّ أحسن السياسة لنشر الفكرة، فابتدأ الدعوة سرًّا حتى ضمن أتباعا أصحاب سلطان، فقد أيَّدته قبائل الساكسون الجرمانية، فلمّا جَهَرَ بدعوته وطاردته الكنيسة خبأه أصحابه و حموه، فقويت شوكته و كثر أتباعه من الناس الذين لم تكن الكنيسة قد بذلت كثيرَ جهد لتعليمهم دينها في السنوات الاخيره و سهل إقتناعهم بالفكر الجديد، فهرعت الكنيسة تنشئ المدارس و الجامعات قبل فوات الأوان، فثارت حرب استمرت عشرات السنين بين اتباع مارتن لوثر الذين سُمُّوا بالبروتستانت ومذهب الكنيسة وقتها وهو

الكاثوليك، حرب بالسيوف وبالمدارس استمرَّت مئة سنة، حتّى توقيع اتفاقية السلام وحرية التفكير و المعتقد عام ١٦٤٨ اتفاقية ويستفاليا، و كان قبل هذه الاتفاقية يُعاقَب بعض طلاب العلوم الطبيعية اذا لم يوافق رأيهم رأي بعض ولاة الأمر وعلماء السلطان، حتى أُجبِر العالِم الإيطالي غاليليو غاليلي على التراجع عن القول بأنّ الأرض والقمر والشمس كواكب كلّ يجري في فلكه رغم تأكيد قوله بالمشاهدة و الحساب، و وُضِع تحت الإقامّة الجبرية حتى مات و كان قد قُتِل قبله حرقا على الصليب العالِم جوردانو برونو لتمسكه برأيه، فكانت تضحية هؤلاء ثم عودة إرادة التعليم و حرية المعتقد مع انتشار الكتب المطبوعة بذرةَ الثورة العلمية الهائلة التي شملت كل العلوم وخاصة الطبيعية منها بعد ان كان الهدف الأوّل منها تقوية العقيدة الدينية، و منذ ذلك الحين رَجَعت الحاجة لفكرةٍ و عقيدةٍ تجمع القوم تحت راية ملوك الدول الطامحين بعد إبعاد المسيحية عن تفريق الناس أُمماً متقاتلة بالإتِّفاق على حريَّة المعتقد، وقد ضَعُف الايمانُ بها في النفوس بسبب ظهور أفكار جديدة منافسة تُكَذِّب الأديان و تتهمها بالتسلُّط ومحاربة العقل وحريَّة التفكير، و ظهرت بعض النظريات العلمية في أوج الثورة الصناعية والانبهار بالمكتشفات العلمية تقول بالاستغناء عن الحاجة لوجود خالق في السماء لتفسير الأسئلة الوجودية، و مثل هذه النظريات التي انتشرت في القرن التاسع عشر نظرية التطور لداروين.

فلما ضَعُف الايمان بالمسيحية رجعت الحاجة للقبليَّة والانساب والالهة القديمة لصناعة عقيدة جديدة تُعقَد عليها القلوب للثباتِ في أرض المعارك والولاءِ لصاحب السلطان، و مشكلة النسب أنّه ليس قادراً على جمع أُمَمٍ متنوعةٍ

بأعراقهم و ألوانهم كما فعل الدين القادر على استيعاب التنوُّع، فانتشر إيمان كل قوم بقوميَّتهم و تفُّوق عِرْقِهم على باقي الأعراق في نهاية القرن التاسع عشر، و لعلَّ أمهر من اعتنق هذه العقيدة الأمّة الألمانية، خاصة بعد الحروب النابليونية وخسارة بروسيا الألمانية الحرب مع نابليون مع أنّهم كانوا أمهر وأكثر وأسلح، فاجتمع أهل الرأي والفكر من البروسيين الألمان و أجمعوا أنّ هزيمتَهم كانت بسبب نقص المثبِّت في قلوب أبناء الأمّة الألمانية، فلم يصبر الجنود الألمان عند اللقاء لقلّة ايمانهم بعقيدة القومية الألمانية مثل الفرنسيين، فأُصدِرت التوصيات والنداءات، وأهمها ما كتبة الفيلسوف الألماني يوهان غوتليب فيشتيه "خطابات للأمّة الألمانية" عظَّم فيها أمّة الألمان و فضلهم على باقي الأمم واصبغ دعوته بالطّابع الديني، و أنهم أمّة مختارة منذ الازل دون غيرهم، وأخذ يسوق الحجج من كل جانب هو و غيره من دعاة القومية، ثم فرضوا على كلِّ أطفال الألمان ان يدرسوا في المدارس القومية الألمانية مجانا، فكانوا أول مقنِّن للتعليم القسري، و قد ظهر أثر جهودهم سريعا فأنشأوا شعبا و جيشا رَهِبَتْهُ كل القارّة الأروبية، واحترمتهم كلّ أمم الارض، وكانت عقيدتهم القومية و طريقتهم في المدارس والمناهج القسرية سُنَّة بدأت دول أوروبا خاليةَ العقيدة تقتدي بها وتطبقها، وتنشئ الجيوش القومية القوية، حتى قلَّدهم أغلب أمم الأرض المتنافسة بالتتابع، وانتشرت العقيدة القومية والتَّعليمُ المدرسيُّ القهريُّ الموَّجَّهُ في أغلب دول العالم وقتها.

إلا انَّ مشكلة هذا العقيدة الجديدة أنَّها ضعيفة الحجّة ولا بد من تكرارها وتكرار تآويلاتها المدبرة وحججها الضعيفة سنين طويلة على قلوب الناس وأسْماع الأطفال لتتحول عقيدة مثّبتة للقلوب، فكان لابدَّ من إطالة سنين الدراسة

القسرية في سبيل صناعة الجيش القوي. و المشكلة الأخرى ان في طيات هذه العقيدة دعوةً مستمرةً للحرب، اذ انه في تعظيم قومية من الناس على باقي القوميات استعلاءً عليهم و تحقيرا لهم، فإذا اعتقدها الأقوام انتشر التحقير والعداء بين الأمم فلا بد ان تكثر الحروب، و إذا حاولت أمّة التوسع و حكم الدول المجاورة لايقاف القتال و ردع العدوان فإنَّه لا يَدين المغلوب بدين الغالب إلا مؤقتا لصعوبة التوفيق بين الأديان القومية المتباغضة، فاذا ضعف الغالب لحظة انقضَّ المغلوبُ ثائرا، و قد ذاقت أوروبا إثرَ ذلك حروبا طاحنةً و شقاءً طويلا كان اكبرها الحربين العالميتين.

قَتَل دينُ القوميَّة ملايين من أهل الأرض، و تيتَّم الأطفال و تهدَّم العمران، فأصبح بغيضا في نفوس أغلب الناس، سُبَّةً على من اعتقده، فمن اعتقده شُبِّهَ بالنازيين تذكيرا بالخراب و الموت.

****

أسباب الحروب

قيل ان النفوس على ثلاثةِ طبائعَ ممزوجةٍ في كلِّ انسان، و حسب تغلب نوع النفس يكون ما يفضله الإنسان من المنافع و ما يُسَرُّ به من النِّعَم، فمن الناس من غلب عليه النفس الملكية فهو يستمتع بإدراك الحقائق و كشف المجهول، يستفزه الغموض، سُرورُه كَشفُ الغُيوب و تحصيل اليقين، و من الناس من غلب عليه النفس الغضبيَّة فسروره في عزَّة نفسه و حريَّة مشيئته والتفضُّل على غيره، فهو يسعى ليحترمه الناس و يقدروه، يكره الخضوع و يحبُّ مغالبة الاقران و قيادة الاخوان، السُّرور عندة الرفعة و المجد و أن يُطاع أمْرُه و يعلو قدره،و من الناس من غلب عليه النفس البهيمية فسروره في الترويح عن نفسه و تلبية مطالب جسده.

والناس كثير و الأرض واسعة، إلا أنَّ آرائهم في الموارد و قوانين توزيعها بينهم قد تختلف، و قد يتنازعون بعض الموارد اذا قلَّت عن قناعتهم، ومن آثآر اختلاف الآراء سرقة الأموال و احتلال الأرض و التنازع على السيادة خاصة عند من غلبت عليهم النفس الغضبية و هم كثر، ذلك ان العلوَّ قد يُطلَب بالقيادة والرياسة على الناس، و هذه سلعة قليلة و تقسيمها عسير للنزاع مثير، لا تَقبَلُ تفاوُضا و توسُّطا، و لا بدَّ أن ينزل عنها الجميع إما قهراً لمن يغلبهم، أو طوعا اذا اختاروا أحدهم ممن لم يطلبها و لا يريد الترفُّع عليهم فلا يُقهر أحدٌ و لا يترفَّعُ أحد، و قليل من الناس من يزهد في طلب العلوِّ من الحُلَماء و العُلَماء ممن غلبت

عليهم النفس الملكية " تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأرض وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ "، و قيل انه من حلم ساد و من تواضع لله رفعه.

و قد تقلُّ نِعَمُ الدنيا عن قناعة محبيها فيتنازعوا عليها، و يدَّعي كُلُّ خَصْمٍ الحقَّ لنفسه، و المظالمُ بين الناس كثيرة.

يروي أهل الاخبار قصَّة قوم من العرب عاشوا في القرن السادس للميلاد في صحراء الجزيرة العربية، و قد كان أهل الصحراء في ذلك الوقت بدوا متحررين، يتفاخرون بحريتهم و انطلاق نفوسهم، لا يحبون الخضوع لملك و لا قانون، فلما كان لا بدَّ من وجود المظالم بين الناس كان لا بد من الرجوع لقانون عند الحاجة، وانَّما كان قانونهم رأيَ من غلب، فكانت تكثر السرقات و غارات القويِّ على الضعيف، و كان الناس يَحتَمُوْنَ بقبائلهم، و تتحالف القبائل ليردوا عن أموالِهم وأنفسِهم، ثمَّ يختارون منهم من يُحسِن سياسة أُمورهم و مغالبةَ عدوِّهم ممن يرضون حِلْمَه و عقله فيسوِّدوه عليهم، و قد سَكَنَتْ نجدا قبيلتان قريبتان هما قبيلتا عَبْس و ذُبْيان، و قد كان عبسٌ و ذبيان إخوة أبوهم اسمه بغيض ابن ريث ابن غَطَفان فكانوا جميعا يُسَمَّون باسم جدِّهم جميعا غَطَفان، وكانت غَطَفانُ مِنْ أشرسِ قبائلِ العرب و أهيَبِها، وكان من أسياد قبيلة عبسٍ قيس ابن زهير وكان فارسا شجاعا ذا راي في السياسة و الحرب، و كان قد جاور قبيلة ذبيان في ديارهم مع جزء من قومه فأكرموهم و رحبوا بهم و تحالفوا معهم على منافسيهم، إلى ان حدث خلاف بين قيسٍ و سيد قبيلة ذبيانَ حذيفةُ ابن بدر و كان فارسا شجاعا لا يرضى الهوان و لا التنازل، ذلك أنّهما قد تراهنا في سباق بين خيولهما على عدد من الابل لمن سبقت خيله، و كانت الخيول رمزا للقوه، و قد كان لقيس خيلان

سريعان مشهوران عند العرب و اسمهما داحس و الغبراء، فسبقت خيلُ حذيفة خيلَ قيس السريعة! إلا ان الفارس الذي ركب داحسَ كان يدَّعي أنَّ رجلا قد وثبَ أمامه في السباق و أخَّره عن السَّبْق، فوقع في نفس قيسٍ الشكّ، و لم يؤدي الرهان الذي عليه و لم يعترف بالهزيمة حتى يتأكَّد من الامر، فذهب يتحقَّق و يَتَقَصّى إلى ان جائه رجل يعتذر و يعترف انّه هو الذي كَمَن لداحِس وأخَّرها عن التَّقدُّمِ والفوز، وادَّعى أنَّ حذيفةَ أمره بذلك، وقد أنكر ذلك حذيفة وأخذ يطالب بالرِّهان، وخفَّفه إلى ناقة واحدة لتكون اعترافا رمزيا بالهزيمة من قيس، وقد ألحَّ حذيفة بالطلب، وكان قيس غاضبا يُحِسُّ بالإهانة و الظُّلم، وهو سيِّد قومه و إهانَتُه تهينهم جميعا، وأمسى حذيفةُ تلك الليلة سعيدا يفتخر بسبقه، وأرسل ابنه ليطلب الرهن من قيس، وأثْقَلَ ابن حذيفةَ على قيسٍ في المطالبة بالرِّهان ما لم يتحمله قيس، وضاق حلمه عن ابن حذيفة و عن أبناء عمومته من ذبيان وجيرانه وحلفائه، فأمسك سيفه و ضرب به ابن حذيفة فقتله، فلما رأى الدِّماء تسيل عرف عظيم ما أحدث، فأخذ الجثَّة وخبأها في داره، وأرسل إلى كل أفراد قومه من بني عبس في ديار ذبيان بما فعل، واسْتَحثَّهم على جمع متاعهم و شدِّ رحالهم سراً، راجعين إلى ديار قبيلتهم عبس خوفا من انتقام ذبيان وسيدهم حذيفة، فخرجوا في الظلام جميعاً إلا أخو القاتِل وهو مالك ابن زهير، وكان قد تزوج من قبيلة ذبيان منذ القديم و صار كأنَّه واحد منهم، و صَعُبَ عليه تَرْكُهم، وخاطرَ بالبقاء معهم ولعله يصلح بين قوميه إنْ أمْكَن، وكان حليما رحيما يحبُّه الناس.

تأخَّر الوقتُ و افتقد حذيفة ابنه، وسأل عنه و كان لم يره أحدٌ منذ أن ذهب لدار قيس، و لم يُجِب أحدٌ طَرْقَ البابِ والنداء، و لم يجب أحدٌ من جيرانهم

من عبس، فاذا دورهم كلها خاوية، فعرف حذيفة ما حدث و وجد جثة ابنه في دار قيس. انقسمت ذبيان بين مُكذِّب مُنْدهِش و غاضِب يريد الثأر، ثمَّ ذهبت الدهشة و سكن الغضب، و بدأت المفاوضات بين عبس و ذبيان، فأظهر حذيفة قبول الديَّة في ابنه عددا كبيرا من الابل الحوامل، و قد لامَه قومُه من ظاهر تخاذُلِه، فلما استلم الديَّة كاملة ذهب إلى مالك أخو قيس فقتله بابنه و نكث الصلح، انغمَّت عبس بمقتل مالك و غضبوا، حاولوا التفاوض و ارجاع السلام بإرجاع الإبل وأولادها، وأنَّه قد قُتِلَ مالك قصاصاً بابن حذيفة، فقبل حذيفة ارجاع الابل دون أولادها التي ولدتها عندهم، و لم تقبل عبس إلا بالابل التي ارسلوها كلها مع أولادها، فقامت حرب بين القبيلتين من أبناء العم استمرت أربعين سنة، هلك فيها الحرث و النسل، كلهم فيها ظالم و مظلوم، قُتِلَ فيها حذيفةُ بعد ان رأى قَتْلَ كثير من أقاربه، و قُتِلَ كثير من أقارب قيس و منهم ابنه و هو طفل، ثم مالت الغلبة في آخر الأمر لذبيان على عبس التي بدأت القتل أولا، فتهجرت عبس عن ديارها في الأرض، و طمعت بها القبائل و كثرت عليهم الغارات، إلى ان قام اثنان من سادة ذبيان و هما الحارث ابن عوف و هرم ابن سنان و أوقفا الحرب، و قد كان الحارث قد تزوج امراة عاقلة طيبة ذات هِمَّة و اسمها بهيسة بنت اوس الطائيّ، فرغَّبته بالشرف العظيم اذا أصلح بين عبس و ذبيان و جعلت ذلك حقَّها عليه قبل ان يقربها، فتحمَّل هرم و الحارث ديات الحرب ثلاثة الاف بعير في ثلاث سنين، و نالا شرفا عظيما و ذكرا حسنا، و انهيا حرب داحس و الغبراء بعد أربعين سنة من الهلاك، و كان أوَّلُ الامر كله خلافاً على سباق خيل.

ثم دار الزمان وجاء الإسلامُ جزيرةَ العرب فجمعهم على شريعة واحدة، وامتدَّ حكمها من بلاد الفرس شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، فكان الناس كلهم يتقاضون بشريعته و يرضون بحكمه، و قد تسابق في القرن السابع للميلاد ابن والي مصر عمرو ابن العاص مع رجل قبطيّ، فسبق القبطيّ و تفاخر علي ابن عمرو، فلم يتحمل ابن عمرو المهانة و قام و ضرب القبطي و فاخره بابيه، فشدَّ القبطي رحاله إلى رأس الدولة كلها عمر ابن الخطاب فاشتكاه اليه، فأرسل عُمَرُ إلى عَمْروٍ و ابنه، فلما مثلوا بين يديه أَمَر القبطيَّ ان يضرب ابن عمرو و يقتصَّ منه، فضربه حتى رضي، ثم قال له عُمَرُ: اضرب عمرواً، فلم يرضى القبطي و قال: انما ضربني ابنه وقد استشفيت منه، فقال عُمَرُ لعمرو: متى استعبدتم الناس و قد ولدتهم امهاتهم أحرارا، فقال: يا امير المؤمنين لم اعلم ولم يأتني.

تختلف بين الناس الاهواء ثم تختلف الآراء، فاذا لم يجتمع المختلفون على تشريع و قانون واحد يتحاكمون اليه ليقضي بينهم كان النزاع و الحرب، ثم الغلبة للاقوى أو استسلام الأضعف و لُجوءِه إلى التفاوض دون قتال اذا عرف الاضعف حتمية هزيمته، فقليل غُنم خير من عدَم، و أمّا اذا اتفقوا على تشريع واحد وقانون فانهم يتحاكمون اليه دون التقاتل فيقضي بينهم بما يرضون جميعا، و اذا خالف أحدٌ حكم القضاء و ذهب إلى الحرب و النزاع كان مخالفا لما اتَّفَقَ عليه عليه الجميع من الشريعة، و كان هو الباغي المهدِّد لكل من اتفقوا على هذا الرأيِ والقانونِ من الناس ولو كان الأقوى، وكان هو المستحقَّ لقتالهم جميعا حتى يرجع معهم إلى الاجماع و الإصلاح و السلم، فكان من أهمِّ ما تستقرُّ به الدولُ القوانينَ والشرائعَ الواضحة المتفقَ عليها بين الناس، فتحميهم من فوضى النزاع و استبداد الاطماع.

وإذا لم يتَّفق الناسُ في رأي قد ينبني عليه قانون يقضي بينهم اختلفوا وانقسموا طوائف، و هذا لا بد منه لتنوع عقول الناس و تنوع خبراتهم، وكلُّهم يدَّعي الحقَّ و الصواب، و إنَّ كثيرا من رؤساء الطوائف طامعون بالسيادة و يريدون الزيادة، فيجتهد كل قائد ليجعل كل قومه يظنون أنَّهم على الحقّ دون غيرهم، ويكره الحوار بين جماعته و غيرهم، و قد يُفَضِّلُ القادة الحربَ اذا ظنَّ انه الاقوى ليحصل على السيادة أو النعيم اذا انتصر، فكانت الأمم قديما اذا قامت دعوةٌ لرأيٍ مخالف في بلادهم نكَّلوا بمن يجهر بها لمنع انتشارها، و إذا ظهرت الدعوة في بلاد غيرهم شوهوها عند أبناء شعبهم، و قد يضطرُّ قادة بعض الطوائف للحربِ مخالفيهم حربا وقائيَّة، خوفا من أن ينتشر رأيهم في بلادهم اذا كان مهدِّدا لهم وكثير من الحروب الطاحنة سببها اختلاف آراء.

لهذا السبب فانه قلما تحاربت دولتان اتخذتا النظام الديمقراطي المنفتح على الأفكار و النقاش، خاصةً بعد توفُّر وسائل التواصل السهله بين الناس، و إنّ الناس غالبا يختارون أحلمهم ليسودهم إذا خُيِّروا، فإذا ظهر رأيٌ وجيه فانه ينتشر بين الناس بالنقاش، ثم ما يلبث ان يصير جزءً من قوانين الناس بالشورى، وإذا كان ضعيفا انهزم بالنقاش دون قتال.

و كانت الحروب شاقَّة على الانفس لما فيها من القتل و الخوف و الفقد، واكثر ذلك يكون على الأمم المغلوبة في الحروب، وكان إبعاد الحرب و مسبباتها عن أرض الأُمم الأقوى هدفا يجتمع لتحقيقة أهل السيادة و الرأي من الأمم، يضعون الخطط و يتفقون مع الحكومات للعمل بها، فكانت كثيرا ما تحاول الأمم ان تتوسع في الأرض وتكوِّن الامبراطوريات و تفرض قانونا واحدا على كل الناس،

فحاول ذلك اليونان عهد الاسكندر ثم حاول الفرس ثم الرومان و غيرهم قبلهم وبعدهم، تدور الأيام بينهم دولاً، ولا يستمر لاحدهم حكمه على الناس و لا يستمر رأيه إلا ما دام قاهرا عليهم، فاذا اختلَّ الحاكم لحظة وثبت عليه الأمم من أطراف الدولة يثورون على جنوده، و قد كانت حركة الجيوش بطيئة فاذا توسَّعت الدولة صَعُب قمع الثورات و الانقلابات، إلى ان سهَّلَ العلمُ نقل الجيوش بالآلات، و سَهُلَ التواصلُ بين الجنود حول العالم، فصار ممكنا إقامّةُ قانون واحد في العالم أو معظمه يتحاكم له الناس، فحاول ذلك الفرنسيون و البريطانيون و الألمان وغيرهم بعدَ تقدُّم العلوم و تحسين الآلات .

لم ينجح أحدٌ منهم بتثبيت حكمه على الناس لانهم افسدوا ما وفَّرته التكنلوجيا بفساد عقيدتهم القوميَّة العنصريَّة، كَرِهَتْهم الشعوبُ التي احتلّوها وكرهوا بعضهم حتى صارت التكنلوجيا نقمة وسلاحا تستعمله الأمم العنصرية الطامعة، فهُم مختلفو الآراء والعقائد و لم تسمح عقيدتهم العنصرية بالتشاور والسلام، فطحنوا بعضهم طحنا مرات عديدة، و قد حاولت الأمم الغالبة في الحرب العالمية الأولى ان يكوِّنوا نظاما عالميا واحدا يتحاكم له كل الناس دون حروب، فكوَّنوا عصبة الأمم، ووقَّعوا معاهدة فرساي وكان الألمان كارهين لها إلا انهم تعاهدوا مع الأمم الأخرى عليها قهرا، و احتفلت أممُ العالمِ المنتصرةُ بالسلام والوحدة العالمية، فما كان إلا ما لا بد منه، و ما ان وقف الألمان على أقدامهم حتى أبَوا و ثاروا و حاربوا، فقامت حرب ثانية أدمى و أدمرُ و أفجرُ من الأولى، أذهلت الناس و كفَّرتهم بالعقيدة القومية و تركتهم في فراغ هوية فيها قليل من بقايا ما كان من الأديان الماضية و قليل من آثارِ القوميّة .

حاولت الأمم المنتصرة بعد الحرب العالمية الثانية أن لا تعيد ما كان من الأخطاء، لعلَّهم يسلمون من الذبح و الرعب، فحاولوا الاتفاق بينهم على رأي واحد جامع، وأن لا يظلموا الأمم القويّة المغلوبة، فأنشأوا الأمم المتحدة للتشاور بينهم، ثم مجلس الامن الدولي والذي جعلوه مجلس التشاور بين الدول المنتصرة لاستخدام القوة، وقد كانت الولايات المتحدة الامريكية و الاتحاد السوفيتي أكبر الأمم المنتصرة وأقواها، و قد كانت قوانين الحقوق المالية للناس و قوانين تملُّك الثروات مختلفة عند الأُمَّتين، فالغنيُّ في أَحَدِهِما يَفقُر بقانون الأخرى، و قادةُ كل أمّة يخافون ان ينتشر نظام الأخرى في بلادهم فينقلب الناس عليهم، فحاولوا منع النقاش بين الرأيين و اغلقوا الحدود و شوه كلٌّ الآخر و تسابقوا على استتباع دول العالم، حتى انقسم العالم كله بينهما و تحاربا في عدة دول مثل كوريا الشمالية والجنوبية و فيتنام و أفغانستان، إلى ان غلب الرأي المالي الأمريكي الرأسمالي على الرأي الاشتراكي السوفيتي فتفكك دون قتال، و تَبِع القوانين و الشرائع الرأسماليَّة الامريكيّة.

****

قيادة أمريكا

نظام الحكم في الولايات المتحدة الامريكية انتخابيّ تشاوريّ، إلا انه يسمح لوُلاة أمرهم بالتحالف مع أصحاب الأموال و الشركات الكبرى في البلاد ليُدعَموا بالمال و جمع المعلومات و الحملات الدعائية للمنافسة في الانتخابات، و قد يتجمع أصحاب كل رأي من أصحاب الأموال و الشركات معا لتشكيل جماعات تؤثر في عدد من المشرعين ولاة الأمور لتحصيل مصالحهم و استمالة القوانين، سموها جماعات الضغط و هم أكثر من يؤثِّر في صناعة القوانين الامريكية.

اجتمع أصحاب الرأي و الفكر من قادة الأمّة الامريكية و أصحاب رؤوس الأموال و قادة الدول الحليفة لهم ليضعوا الخطط لتوحيد العالم و إيقاف الحروب، فوضعوا قوانين عالميَّة لحلِّ الخصومات بعد أنْ وافق عليها الجميع مثل قوانين حقوق الانسان، و بُنِيَت عقائد جديدة متَّفَقٌ عليها جُمِّعت من بقايا العقائد القديمة، تحاول ملء الفراغ المقلق في نفوس الناس، مثل عقيدة الإنسانية و التي تعني ان كل البشر متساوون، و عقيدة الوطنية التي تقدس الحدود الجغرافية التي قررها المنتصرون في الحرب، و نشروا القواعد العسكرية في أغلب أنحاء العالم احتياطا، و اذا خالفتهم أمّة حاصروها و حرضوا عليها حلفائهم و منعوها المتاجرة مع غيرها حتي يفتقر شعبها، و قد تستخدم القوَّة لاخضاع المخالفين و ارعاب الآخرين، ومثال ذلك قصف الصرب في كوسوفو لوقف ذبح مسلمي البوسنة عام ١٩٩٩، و قصف العراق و اخراج الجيش العراقي من الكويت عام ١٩٩١، ثم احتلال العراق و تدمير جيشه كله عام ٢٠٠٣ بعد ان هدد قائدُهم صدامُ إسرائيلَ حليفتَهم

بانه سيجعل النار تاكل نصف إسرائيل، فلفقوا الاتهامات التي لا يُسمع لمن ينفيها، و تحججوا بوجود أسلحة دمار شامل حتى دمَّروا العراق دمارا شاملا .

وقد كان الاتحاد السوفيتي يسعى لينشر الاشتراكية في الدول قبل ان يسقط، وكان قادته يخافون الآراء المخالفة لهم، و كان قد ظهر عندهم في أفغانستان جماعات معارضة يدْعون إلى شريعة دين الإسلام، فخافوا اذا هو حكم و نجح ان يُحفِّز دول الاتحاد السوفيتي الأخرى ليقلدوهم، فاحتلوا أفغانستان عام ١٩٧٩ للميلاد و ظلوا يحاربون الثوار الأفغان عشر سنين بقسوة العقيدة الاشتراكية و فتّاك الأسلحة حتى قيل ان عُشر شعب الأفغان قُتِل، و كان أصحاب الحكم و الراي في أمريكا يخافون الاشتراكية المنتشرة اكثر من احتمال انتشار شريعة الإسلام فدعموا الثوار الأفغان، و قد تسلح الثوار بعقيدة قوية يؤمنون بها إلى جانب السلاح الأمريكي، لم يحتاجوا اثنتاعشر سنة من المدارس ليزرعوا عقيدتهم في نفوس جنودهم بل قليل من الكلام و عرض الافكار و النقاش كان كافيا لتسليح المقاتل بعقيدة تبعث الإرادة و الثبات في وجه الموت المؤكد، حتى انسحب الجيش السوفيتي عام ١٩٨٩ تاركا أفغانستان إلى بلاده التي كانت تحتضر فيها عقيدته الاشتراكية فتفكك الاتحاد السوفيتي بعد سنتين و بقيت عقيدة الحركات الإسلامية التي كان يحاربها.

سلاح العقيدة مثل غيره من الأسلحة، و كلَّما كان السلاح أقوى كان الحذر أوجبَ في التعامل معه، فاذا امسك السلاحَ من لا يحسن استعماله فقد يؤذي نفسه و أصدقائه، و مَعْمَعَةُ الحروب تُغطّي على صوت العقل، و قد يفضِّل الناس أصحاب النفوس الغضبية لإمارتهم لأنهم أعزُّ ظاهرا و أقسى على العدو و أشفى للصدور، فحينما انتهت الحرب و حان وقت التشاور و ارادوا نسخ طرق الشورى

الأوروبية و الامريكية كان قادتهم أهلَ الحرب ومحبوا السيادة، و كان لحنُ العنف في الاذن يسمع قبل النِّقاس و الحِوار.

قيل ان المرء بأصغريه قلبه و لسانه، فهو عند الناس ما يقول و يعتقد، و إن أوَّلَ الفهمِ استماعُ القول، ثم يؤدي الفهم إلى تصوُّر الفكرة، ثم يكون الحكم على الأشياء حسب تصورها، و قد يُدرَك المُتأمَّل بالقول الزين وقد يضاع المحصّل بالقول الشين، فاذا حرص الإنسان على إصلاح قوله و عقيدته حرص على اصلاح حاله و حال الناس، ومن أشكال إصلاح القول تخيُّر الكلمات، فالأقوال كلمات، وبعض الكلمات تحمل مجموعة معاني في الكلمة الواحدة، فاذا اختيرت و قيلت اوحت في عقل السامع معانيها المُضمَنة قبل ان تكتمل الجملة، و مثال ذلك مايُسمَّاه أصحابُ التفكر اذا رأوا راياً و تأولاً في أمر من أُمورِ أُمَّتهم يظنون أنَّهم به على حق، فاذا اجتمعوا ليعرضوا رأيهم سماهم الناس حزبا، فيوحَى في نفسِ من يسمع كلمةَ حزبٍ التَّحزُّبُ و التَّعَسكُر، و تخيَّل غزوة الأحزاب و النِّزاع و الحرب، وحضرت رأسَه الآية من القرآن "وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُون" و تذكر الاية " ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ"، و هو يرى أنَّه على الصواب والصدق، و يرى الحقَّ في رأيه حسب ما بدا له من ظاهر النظر في الأدلة و ترجيح المصلحة، فاذا سُمِّيَ هو و من وافقه رأيَه حزبا ظنَّ أنّه من حزب الله، فلا يتصور غيره إلا حزبَ الشيطان، و تنقبض نفسه عن مناظرتهم و مشاورتهم و القبول بهم.

و انها قد كثرت الآراء و المذاهب في التاريخ الإسلامي، و كانوا اذا اختلفت جماعة برأي ينبني عليه قانون و تأثير و معارضة سمّاهُم الناسُ طائفة، ولم يتحزبوا حزبا منازعا، و ما زالت الطوائف الإسلامية تختلف و تتناظر و تتشاور و يتقبَّلون الاختلاف و يتناظرون بلا نزاع ولا عنف، فيثبُتُ الأقوى حُجَّةً، و يُتْرَكُ الآخرُ لمجموع الناس و الأيام، فما كان خيرا بقي و انتشر و غيره قد نسي و اندثر، وما كان القتال و العنف إلا على الطوائف الباغية اذا استبدت بادِّعاء الحقِّ دون الناس واعتَدَت على غيرها مهما كان فضلها و ايمانها " وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ "

فتقاتل أُمراءُ الحربِ في أفغانستان بعد رحيل السوفييت، و فرّقوا سلاح العقيدة و صلَّطوه على بعضهم حتى قُتِلَ كثير من عقلائهم و قادتهم.

استمرَّ القتالُ إلى ان استوى الامرُ على حركةِ طالبانَ و من حوت من المجموعات المتهادنة، فحكمت أفغانستانَ عام ١٩٩٧، وقد كانت القوانين الامريكية منتشرة في كل العالم لا ينازعها منازع إلا بقايا الاشتراكية الضعيفة القليلة في بعض الدول، فظنَّ المتخوفون من قادة الرأسمالية انها شريعة منافسة جديدة للراسمالية، و كانت قد علت أصوات دعاةٍ إلى الإسلام في ديارهم في ذلك الوقت مثل احمد ديدات ثم ذاكر نايك و غيرهم، و قد كان الناس أحرارا في اختار دينهم وفي النقاش الديني في حكم الرأسماليه لما يتبنونه من قيم الحريَّة، كان صعبا إغلاق أفواهِ الدعاة و أَسماع الناس في زمن سهل فيه التواصل، فضاقت الحيلة عن

الماكرين بهؤلولاء الدعاة في بلاد الرأسمالية و خارجها، فما كان إلا ان حدث تفجير أبراج التجارة الامريكية باسم الإسلام، فانغلقت قلوب الناس عن الإسلام، و اذا انغلقت القلوب لم تصل اليها الكلمات و لم تجاوز الاذن، و لعل أصحاب الامر و الرأي في الرأسماليه كانو أفرح بهذه التفجيرات ممن أراد الانتقام من الامريكان لحظِّ نفسه من الثأر، فترى الفرح في وجه جورج بوش و هو يخطبُ في الجماهير فوق الاطلال عند الأبراج المهدومة وفي القاعات، تكاد الابتسأمّة تفضح سريرته.

قد تورَّط المعارضون الكارهون لقتل المسالمين و تفجيرهم مع المؤيدين له وشملهم العقاب جميعا، فأعلنت الولاياتُ المتحدة حربا مفتوحة عالمية على كل من أطلقوا عليهم وصف الإرهاب ممن عارضهم و أمكن تشبيههم بمؤيدي التفجيرات، و قد كان من نفذوا التفجيرات من المقهورين أصحاب النفوس الغضبية، يرون الطائرات الحربية تقصفهم و ما لهم عليها من قوة ولا حيلة، فأرادوا الانتقام و استفزاز من يرسلون الطائرات لياتوا بأنفسهم و يقاتلوهم على الأرض، ثم لعله ينضم لهم إذا عمَّت البلوى من كان خالفهم الراي أوَّل الامر فتقوى شوكتهم.

قاتل الامريكان كلَّ من كان ذا قوة في أفغانستان من غير تفريق بين من يقبل قتل المسالمين و من يعارضه من أهل أفغانستان، بل كانوا يقتلون المدنيين هم أنفسهم ويأتون ما ينهون عنه، فكان للامريكان ما أرادوا من حرب الشريعة الإسلامية في العالم و إغلاق القلوب دونها، و كان لمن نفذ التفجيرات ما أرادوا من جر أمريكا لحربهم و حرب غيرهم على الأرض الأفغانية، و لكن لم يصطفَّ معهم جموع المسلمين، ذلك انهم توَجَّلوا منهم و من تجرُّؤِهم على دماء غير المعتدين

من المسالمين بل و المسلمين، وهي من أعظم الحرمات في الإسلام، و ان ترْكَ التورُّع عنها مشكِّكٌ في عقيدة سافكيها، فما كان للناس ان يقدِّموا ارواحهم دعماً لعقيدة مشكوكٍ فيها، ومن رفع راية شريعة و اعتقدها فان تزيينها للناس جزءٌ من الدعوة اليها، و تشويهها تنفير عنها و فتنة عن دينها لجاهليه، فمن صدق الولاء ترك حظَّ نفسه من الانتقام و العصبيَّة، و صبر على الاستفزاز و الألم، و التزم أحسن ما في شريعته ليِّزينها للناس "وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُالْحَاكِمِينَ "، "قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأرض لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ".

استمرت الحرب على حركة طالبان عشرين سنة بعد انسحابها عن الحكم عام ٢٠٠١ و لم يدعمها أحد، و ما كان معهم إلا الأسلحة القديمة و قد اهترأت، ولكنهم يحملون سلاحهم الأقوى عقيدتُهم التي غَلبوا بها الاتحاد السوفييتي، رغم ما تعرضت له من التشويه علي يد بعض حامليها و التشكيك و الطعن من اعدائها، فما ان سحبت أمريكا أسلحتها حتى عادت طالبان تحكم الأرض.

لم تتَّفِق أُمَمُ العالم بعدُ على قانونٍ واحدٍ يتحاكمون اليه جميعا عند الخلاف، وشريعةُ كلٍّ منهم تضرُّ أصحاب اللنفوذ و السلطان في الأخرى بما يمنع تفاوضهم، وإنَّ عقلاء الرأسمالية لا يقبلون التَّسلّطَ على حريات الناس وأموالِهم وظُلمَ اغنيائهم كما هو الحال عند غيرهم من بعض الأمم، و أصحاب بقايا الاشتراكية و غيرهم من الامم لا يقبلون ظلم و احتكار الشركات المالية العملاقة وهي من أصحاب الأمر و التأثير في حكم الامم الرأسمالية، و لا يحبون ما يرون

عندهم من الفقراء المشرَّدين المساكين يموتون جوعا أمام الأبراج الطويلة و قصور أغنى أغنياء العالم، وإذا حَصَلَ الفقير عندهم على مال ربما بالدَّين المرابى لأصحابِ رؤوسِ الاموالِ لياكلَ و يشتري حاجاته اعترضته المكوس غاضبةً طامعة، لتأخذ جزئا من ماله القليل الهزيل و تجعله في مؤسسات الدولة العامَّة لينتفع بها أصحاب القصور والأبراج قبله، و اذا انتفع الفقير بالمؤسسات العامَّة بعد شقاء وتهميش و تعلَّم حرفة يتكسَّب بها هجمت عليه الضرائب تتوعده و تحذره، تمنعه ان يحاول التطاول إلى أسيادِه قادةِ الرأسماليه، و إذا أفلت أحدُ الفقراء و كان ذا حظٍ و دهاءٍ و جمع رأس مالٍ صار منهم و تنكَّر لماضيه و أُكثِر من ذكر قصته ليتوهم عامَّة الناس من الفقراء توفر الفرص و يقعدوا عن الاعتراض، و الناس في الأرض يرون هذا الظلم و يلعنونه و يرون أصحابه لا ينفكّون ينشرون ثقافتهم وقوانينهم المالية و الأخلاقية بالترغيب و الترهيب، و اذا لزم بطشوا بخصومهم بلا ذِمَّة، لا يفرقون بين مذنب و بريء، و هُم من دمَّر مُدُنا بمن فيها بالقنابل النووية، وأنَّ كثيرا من الأمم لتتربَّص بهم ضعفا لينفكُّوا عن اتِّباعهم، و يتبرأوا من شريعتهم و حكمهم، و لا زالت المشاحنات تنذر بالموت و تُذكِّر بضرورة حلّ سلميٍّ صادق.

****

قلَّة الطعام و الحروب و المدارس

إن هذه القوانين و الشرائع هي ما تقضي بين الناس المتنوعة أحوالُهم في أمور دنياهم، فاعتقد بعض المُفكِّرين أنّه لو كثر النعيم على كلِّ أهل الأرض فربما اقتنع أهل القناعة من الناس و لم يختلفوا ابتداءا و لم يتنازعوا و لم يحتاجوا للشريعة الموحدة و ربما قلَّت الحروب، مع ان كثيرا من الناس لو كان عند أحدهم جَبَلان من الذهب لَطَمِعَ بالثالث، و كلما زاد النعيم زاد عدد الناس معه و عظمت قوتهم واغترَّ بهم قائدهم وحارب خصومهم، و قد كانت الأمم الأغنى تحتل الأراضي وتتوسع منذ قيام أوَّل الحضارات الإنسانية على ضفاف دجلة و الفرات، فقد كان البشر يأكلون ما يجدون في الطبيعة قبل الزراعة، ثم اتقن بعضهم الزراعة و تقوَّو بها فتكاثروا و بنوا و صنعوا و توسعوا إلى من حولهم من الأمم حتى تعلمت الأمم كلها الزراعة و تقووا مثلهم و توازنت القوى.

انتعشت الزراعة و الصناعة مرة اخرى في الثورة العلمية الحديثة، و بدأ يتكاثر الناس وتتقوى الأمم و تتحارب، فظهرت بعض الدعوات لتقليل زيادة الناس، وقد ظهرت بعض النظريات المنفرة من تزايد أعداد البشر متشائمة باحتمال المجاعات و الحروب، و أوَّلُ من اشتهر عنه ذلك و كتب عنه البرطاني توماس مالتوس بداية القرن التاسع عشر، و كان يعرف علوم الاقتصاد و الحساب و اهتم بأمر تعداد الناس و تزايدهم في الثورة العلميَّة و تنبّأ بأثر ذلك و عاقبتة، وكان قد انتشر التعلم بالتجريب و الملاحظة، فرأى ان الحيوانات اذا وُضِعَت في أرضٍ محدودة الموارد تكاثرت سريعا اول الامر حتى تصل حد قدرة الأرض فيقلّ

التكاثر وقد تموت بعض الحيوانات جوعا و تتقاتل، فتوقع ان سياتي يوم يحدث ذلك للناس، و ادَّعى انه قد حدث ذلك في الماضي في بعض الاماكن قبل الثورة العلميّة وتحسين الزراعة، و قد صار كل من أخذ بهذا الرأي انتسب لهذا الكاتب و تسموا بالمالتوسيين، وقد عارضهم كتير من أهل العلم و ذلك أنّه لا بد ان تتشابه أحوال المُجرَّب عليهم مع أحوال الناس ليشملهم نفس الحكم، و قد خطَّأوا تشبيه الناس بالحيوانات البسيطة التي همُّها بهيميتها ولا عقل لها، و إنَّ للإنسان حاجاتٌ و آمال اكثر من مجرد البهيمية، فهو يحب الغنى والكرامة والتفاخر بالأموال قبل الأولاد و يخاف الفقر و ذُلَّه، و قد كان الناس منذ ما قبل الإسلام يقتصدون في الانجاب رغم ما فيه من التكاثر و التَقَوّي، بل انَّهم قد يقتلون أولادهم و يجهضون أحمالهم خشية الفقر و هم ليسوا فقراء فجاء الإسلام ناهيا عن ذلك " وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا " .

و ما كانت كلُّ المجاعات إلا بعد كوارث طبيعية، أو لحمقٍ و فسادٍ إداريّ، أو حربٍ مُخرِّبةٍ تُشغل عن إصلاح أحوال الناس والأرض، والحربُ و التهديدُ يَدعوان للتَّكاثر و التَّقوّي و لو ادّى ذلك للمجاعات، وقد قيل ان السيف ما عمل في قوم إلا كثروا، و هذه الشرور المجوِّعة لا تفرِّق بين قليل الناس و كثيرهم و ليس حلُّها تقليلَ الناس، وقد قال بعض العلماء انَّ من أسباب التقدم العلمي و الصناعي والزراعي تكاثرُ البشرِ والمدنُ العامرةُ المكتظةُ، ذلك انّه يختصُّ كل واحد من الناس الكثيرين في عمل واحد يتقنه و يتفرَّغ له و يخدم به كثيرا من الناس حوله فيكثر الإنتاج و يفيض دون مشقة.

الاقتداء بالامم القوية

ما زال الناس منذ القدم يتحزبون جماعات تحت كلمة واحدة حتى يتقووا ببعضهم و يكونوا أمّة واحدة يتنافسون مع غيرهم من الأمم، ولا زالت الدائرة تدور بينهم غالبا ومغلوبا، ولا زالت الامم المغلوبة تنظر في حال الامم الغالبة لها و تحاول تقليدها، فتاخذ اسباب النصر من الامم الغالبة و تلتزمها ما سمحت لها فرصة، فاذا ضعفت الأمّة الغالبة لفتنة حلت بها قامت الأمّة المغلوبة بمن فيها من أهل العزم بالأخذ باسباب القوة و النصر، ثم ربما تحرروا من تحكُّم الأمّة الاقوى اذا ضعفوا عن قهرهم و تخلوا عن حكمهم، و ربما تمادت الأمّة الاضعف فصارت ندا منافسا، ثم تدور الدائرة و تقوى امم جديدة.

لقد سبقت أُممٌ إلى اكتشاف العلوم زمن النهضة العلميّة و استعملتها قبل غيرها، و قد كانت العلوم المُكتَشَفة تستعمل في اكتشاف علوم اخرى سريعا، حتى صارت الامم السابقة إلى العلوم أقدر و أقوى، فسطت الأمم الأقوى على الأمم الأضعف، و مثال ذلك ما كان من تكوين الامبراطوريات ثم المستعمرات، و كان هذا سببا في زيادة الفرق بين الامم القوية و الضعيفة، اذ ان الامم الأقوى تسعى لإضعاف الأمم الأضعف و تفريق جمعها و تشتيت كلمتها و تأخير استخدامها ما اكتُشِفَ من العلوم، فيسهل حكمها و نهب مواردها، و لكي تظل لهم السيادة و لا يتكوَّن منافسٌ مهددٌ لاستقرار الأمن العالمي.

وقد كانت العلوم الطبيعية قديما قليلة و أكثرها علوم وسيلة ليس لها أثرٌ واضحٌ في تقوية الجيوش المتحاربة، فكانت انّما تنشط في السَّلام و الدَّعة و تنكمش

في الحروب و القِلَّة، و كانت الأمم الاجهل في الغالب أقوى لانشغال جنودها في التدرُّب و الفروسية بدل تحصيل العلوم الطبيعية التي لم يكن لها أثرٌ واضح في تقوية الجيوش، فكانت المصيبة عندما تتغلب الأمّة الأجهلُ على أمّة العلم ثم لا تراعي في العلم حرمة ولا قدرا، فيبدأ الذبحُ بالعلماء قبل باقي الناس و الحرقُ بالمكتبات قبل البيوت، وأشدُّ ضررا من هذا كله ما يلحق بأنفس أهل الأمّة المهزومه من هجر للعلم اقتداءً بالغالبين الأقوياء الجاهلين لعلهم يتقووا اذا اتصفوا بصفاتهم ومنها الجهل، وقد يكره الناس العلم في هذه الشدائد لاعتقادهم انها ترف و سبب للهزيمة، و مثال ذلك غزو المغول للأمّة الإسلامية و حرق دار الحكمة سنة ١٢٥٨ للميلاد و غزو القبائل الجرمانية الدولة الرومانية الغربية في القرن السادس الميلادي.

و قد كانت الأمّة العربيَّة أميَّة أغلبهم لا يقراؤون و لا يكتبون إلى ان جاء الإسلام بالحث الملحِّ على القرائة و العلم، فتعلَّم الناس القراءة والكتابة سريعا، ولمَّا دانت لهم بلاد العجم و ما فيها من العلوم كانوا على أجهز ما يكون لاستقبال علومها و كانوا من أجلِّ الناس للعلم و العلماء اتباعاً لدينهم، فأكمل علماؤهم طريق العلم و بنوا على ما بناه غيرهم إلى حين.

و قد تغزوا الأمّة الاعلم الأمّة الاجهل و قد كثر هذا حديثا لمَّا ظهر أثر العلم في تقوية الجيوش و ابتكار السلاح.

و مثال ذلك ما كان من غزو أُمم غرب أوروبا على الأمّة الاسلامية والافارقة و غيرهم، و تقسيمهم و نهبهم بعد الثورة العلمية، و قد كانوا أعلم منهم وأسبَقَ إلى استعمال علوم الطبيعة، ذلك انّ اعتماد الطابعة في الدولة الإسلامية

العثمانية قد تأخر قرابة قرنين من الزمان، تطْبَعُ الأممُ كُتُبَها بالاعداد المهولة وينتشر العلم فيهم، و يخُطُّ المسلمون علومهم على المخوطات باليد، و لسنا نسخط على الماضي ولا نسبُّ الأموات ولكنْ نبيِّن الأخطاء عبرةً، فقد حرَّمَ وُلاة أمر المسلمين وعلماء السلطان الطباعة على المسلمين واحتَجّوا لذلك بآلآف الخطّاطين الذين لن يجدوا عملا، والطباعةُ قد تنشر الأفكار المعادية لما يريد السلطان وعلماؤه، فكان من أثر سفه رأيهم ما أصابنا إلى اليوم .

كانت القوة للأمّة السابقة للعلم فبادروا خصومهم و استعمروا أرضهم وقسموها بينهم، و قد حاولت دول المسلمين المقسَّمةُ تقليد مستعمريها و خاصة في مجال العلوم، فأخذوا النظام الدراسي عن الدول الغالبة القوية أخذا أعمى، واعتقد ولاة الامر و أصحاب الفكر ان فيها سبب النصر و سر تحصيل العلوم، حتى صار النظام المدرسي يتبعه النظام الجامعي مُقدَّسا في عقل كل من أراد الخير لأُمَّتِه، وأصبح جُرما محاولةُ نقدها، لعلهم يدركون بعض أسباب القوة التي عند غالبيهم، وقد أعماهم و ثبَّطهم ذلُّ الهزيمه عن التفكُّر في تفاصيل النظام التعليميّ و أضرارِه وحقيقةِ أمره و الدماء تسيل و القلوب لدى الحناجر.

و قد تبنّى الرأسماليون إحياء نظريّة مالتوس، و تعاهدوا و خططوا لتقليل السكان عندهم و في كل العالم بعد الحرب العالمية الثانية، و اتخذوا وسائل كثيرة لإنفاذ الرَّأي المالتوسيّ ، ومن الناس الذين دُعِمو و أُشهروا عالمُ الاحياء والحشرات الامريكي في جامعة ستاندفورد، بول ارليخ والذي كان مالتوسيا متعصبا كثير التشاؤم، و كان خطيبا بارعا فكثرت استضافاته على التلفاز و الراديو للتاثير على الناس، و قد الَّف كتابا عام ١٩٦٨ اسماه القنبلة السكانية، تعسَّف فيه و تنطَّع،

وكان يَعِدُ فيه بالمجاعات، و يحثُّ على تقليل السكان بالترغيب و الترهيب، و ان لزم فبالاجبار و العنف، و قد انتشر كتابه حتى بيع منه مليونا نسخة، و قد افتتحه بانّ معركة إطعام البشر قد انتهت وأن مئات الملايين من الناس سيموتون جوعا في بضع سنين في سبعينيات القرن العشرين، وقد راهن على مجاعات في بريطانيا وأمريكا و غيرها من الدول، و كَذَبَ رأيه و لم يحدث من توقعاته شيء .

و قد استمرَّت الهِمَّة و السياسة لتقليل السكان و كان أثرها أكبر في الدول الرأسمالية إلى ان و صل عدد المواليد في بعض الدول ما دون عدد والديهم بدل ان يكونوا نفس عددهم ليحلوا بعدهم رغم وفرة المزروع و المصنوع و الترف، وخاف العقلاء من الإنحسار بعد التكاثر و الضعف بعد القوة، وانهم إذا استمروا بالانحسار قد يأتي يوم تخلوا فيه البيوت و لا تجد من يسكنها دون مجاعات و لا حروب، ثم تُهجر المدن و المصانع و المزارع وتصبح آثارا كآثار الأمم المترفة الغابرة.

وكان الرأسماليون يحاولون تقليل السكان في كل العالم، و يدبِّرون لذلك الحيل و الخطط، و قد كانو يجرون الدراسات عن حال النمو السكاني في دول العالم، ثمَّ يختارون أحسنَ الطرق لكبحه بما يناسب كلَّ دولة، و يرسلون التوصيات لمؤسسات الدولة و الجمعيات الدولية التابعة لهم لتنفيذ الخطط، ثم يضغطون على قادة الدول الحليفة لتسهيل قراراتهم و التيسير لجمعياتهم، و مثال ذلك ما انتشر إلى العلن في أوّل التسعينيات من الوثائق السريَّة التي كان قد أصدرها مجلس الأمن القوميّ للولايات المتحدة الامريكيّة عام ١٩٧٤ باشراف هنري كيسنجر اليهودي الألماني الأمريكي، مستشارِ الامن القومي الأمريكي في ذلك الوقت ومستشارُ كثير من رؤساء الولايات المتحدة الامريكية و أصحابِ رؤوس

الأموال، ذو نفوذ و سيادة، كتب كثيرا من سياسات الولايات المتحدة الامريكية في السلم و الحرب، حكم بها على مصائر كثير من الأمم، أُعطِي جائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٣ رغم اعتراض بعض من في اللجنة و استقالة اثنين منهم، معلِّم علم السياسة في جامعة هارفرد الامريكية، اسم الوثيقة "مذكرة دراسة الأمن القومي رقم ٢٠٠: انعكاسات النمو السكاني في جميع أنحاء العالم على الأمن الأمريكي والمصالح الخارجية(**NSSM200**)" وهي وثيقة مهمة فيها من سياسة قادة الرأسمالية في التعامل مع تكاثر البشر في العالم، و قد بدى في نصوصها شعور الخوف من الأمم المتكاثرة، بدأت بذكر معدل التكاثر في الدول و الفرق بين تكاثر أعداد الناس في بعض دول العالم مقارنة مع الدول الرأسمالية، ثم عرضت النظرية المالتوسية و الاحتجاج لها و الاستدلال لصحتها من ان كثيرا من الحروب تحدث عند الأمم المكتظَّة، و ذكرت أثر تكاثر الأمم على استيراد المواد الخام للمصانع الرأسمالية و أثرَ ذلك على تجارتهم، و ذكرت أمرَ الجوع عند الأمم اذا استمرّوا في التكاثر، و القلاقلَ السياسيةَ عند الأمم المتكاثرة و الجائعة و انقلابها على حكامها، ثم حذَّرت من وعي الشعوب بمشروعهم و ان يحسُّوا بان تقليل السكان من السياسة الإمبراطورية الامريكية فينفروا منها، و حذروا من إغضاب قادة هذه الأمم و إثارة المعارضة لهم و تذكيرهم انّ كثرة السكان قد يؤدي إلى انقلابات، وأوصوا بان يكون الحديث إلى الشعوب من خلال الجمعيات العالمية و قادة هذه الشعوب، و ان الاهتمام بتقليل الناس يجب ان يبدوا اهتماما بهم و الحربُ على الأُسَرة اهتماما بالأُسَرة و حرصا على صحتها و رفاهيتها، و قد أوصوا بتشكيل لجان و توظيف خبراء و توزيعهم على بلدان العالم و على المؤسسات العالمية و مراكز

القيادة و القرار لمراقبة سير الخطط و الالتزام بها و تعجيل فعلها، و جعلوا لذلك مالا جمعوه من شعبهم و شعب حلفائهم و من خضع لهم من دول العالم، ذكرت الوثيقة خمسمئة مليون دولار في السنة في تاريخ إصدار الوثيقة عام ١٩٧٤ و هو مال كثير في وقته، و يُجعَل جزء من هذه الأموال مكافأة للدّول الملتزمة بالخطط على شكل إعانات، و من أكثر الخطط المذكورة في الوثيقة لتقليل الناس تعليمُ الأطفال و الشباب بنفس طريقة التعليم عندهم، و شدَّدو على الإناث و الحث على تسهيل عملهن بدلاً عن الزواج و الانجاب المذموم في الإعلام المؤجَّل في الافهام، و نَشرِ موانع الحملِ و طرقِ التعقيم و دعمها و ترغيب الناس بها بالاقناع و بالمال، و دعمِ قتل الاجنة في الارحام و تشجيعه، و أنه يجب استخدام الراديو و تحضير برامج التلفاز و كان قد اختُرِع و لم ينتشر بعدُ وقتها.

و قد ذكروا ثلاث عشرة دولة بأسمائهم انهم كثيرون و اعدادهم تتكاثر وانهم يحتاجون تشديدا و تخطيطا أكثر.

انها قد نجحت خططهم في أغلب الأحيان و انتشر تأخير الزواج و عسِّر وخاصة في الدول التي يحتلها النظام التعليميُّ المؤخِّرُ للعلمِ النافع، المشغلِ عن الواقع، و قد أظهر هذا النظام أثرا عظيما في تقليل البشر، فلا تجد قوما تبنَّوه إلا قلَّ عدد اولادهم و انكمش نموُّ سُكَّانِهم، و ذلك لتاخُّر سنِّ الزواج و زياده تكلفة الاولاد، و غالبا ما تكون الدول الآخذة بهذا النظام هي التي عندها كفاية من المال و الأمان و الاستقرار، المستعدة لتعليم شعبها الباحثة عن مصلحته، فإذا بها بدل ان تُعَلِّم شعبَها العلمَ المنتجَ المفيدَ الواقعيّ تشغلهم بشتات من العلوم النظرية المتفرقة المجتزأة في أهم فترة من عمر الإنسان للتَّعلم ليتأخَّر سنُّ الإنتاج و تحصيل

المال و الزواج و الانجاب ، تُملَأ سنين طالب العلم النافع للناس بعلوم كلامية وبدائية مجمَّعة بحجة الثقافة العامَّة، وأكثرها من علوم الوسيلة التي لن يحتاجها الطالب، انما ينتفع الطالب بجزء ضئيل منها و هو ما وافق علم حرفته التي سيعمل بها، و كان يكفي ان يتعلم هذا الجزء في زمن أقلَّ بكثير و ان يستغل وقته يتبحر في علمه و يطبِّقه و يرى نفعه و أهميَّته منذ بداية التعلُّم، فتتكونَ عنده الرغبةُ التي لا يكون التعلم بدونها ابداً، و العلمُ لا يُعطى بالإجبار ولا حتى العلوم الثَّقافيَّة المتشتِّتة، انما يُعرَض العلم على الحواسّ فيأُخذُ الطالب بقدر رغبته و استعداده و اقتناعه بنفع العلم، ثم بعد إتقانِ علم و استعماله ربما تعلَّم علما آخر اضافه اليه اذا شاء واستطاع، فيكون عالما متقنا للعلم الأول يجعله أساسا و ينطلق إلى العلم الثاني على بصيره و عزيمة ثم يضيف ما يختار من العلوم المفيدة لعلمه الأول دون ان يضيع عمره فيما لا ينفعه، بدل التخبط الاعمى بين العلوم التي لن يتعلمها لعدم الترغيب بها، و لو حفظها و تعلَّمها فإنَّه لن يستعملها وسينساها، فان الطالب اذا وصل درجة العملِ و خدمةَ الناسِ و التكسبَ نَسيَ كل ما تعلَّمه مما لن يستعمله، وما ضرَّه ذلك، بل قد ينساها بعد ان ينتهي الامتحانُ الأخيرُ في كل سنة من سنوات التعليم في المدارس و الجامعات، فكان ليس له من كل هذه السنين الطويلة إلا إضاعة المال و الجهد والعمر والذي هو أغلى ما يملكه الإنسان محدود الاجل.

و ما زالت المناهج القسرية تتزايد، و تتراكم أعضاءً مقطَّعةً مشوَّهةً يُجبَرُ الطلابُ عليها جبرا و لا ينتفعون منها شيئا، و جُعِل هذا النظامُ الوسيلةَ الوحيدةَ المقبولةَ لتعلُّم القوانين الطبيعيَّة و استخدامها حرفةً لخدمةِ البشر، ومن أراد

تحصيل العلوم بغير هذا النِّظام لم يحصل على شهادةٍ تؤهِّله لاستخدامه في طلب الرزق و لم تعترف به المؤسسات في الحكم الرأسمالي.

و إنّه لو اعتدل النظام التعليمي لكثر العلماء المتقنون و لانتشر إبداعٌ لم يكن إلا في النوادر من الناس، ولأصبح الشّابُّ اليافعُ قادرا على العملِ و كسبِ المالِ و الزواجِ و الانجابِ، ثمَّ التنافسَ على الموارِدِ مع الرأسماليين المحتكرين.

انَّ أكبر خطأٍ و أقبحه عند الرأسماليين و من سبقهم من المتشائمين أنَّهم استخفوا بأعقدِ و أعظمِ مخلوقٍ في الدنيا، و هو الذي لم تُدرَك آفاقُه و لم تُحَلَّ تعقيداته و لم تُفهم نشأته انه عقل الانسان، يقول عليّ ابن ابي طالب كرَّم الله وجهه في الانسان:

وتحسب أنك جرم صغير و فيك انطوى العالم الأكبر

يشبِّهون الإنسان بالحيوانِ و الحشرة، و جعلوا الناسَ عالةً كالحيوانات على هؤلاء القلَّة الرأسماليين المستكبرين.

انه لو حصل كل عقل من عقول الناس الكثر منذ الصِّغَرِ على العلمِ النّافِع الهائل المُكتشَف، و العجيبِ الذي سيكتشفونه، لامتلأت الأرض خيرا و تزينت بالعمران المليئ بالآلات المُعينة للبشر، و لخضَّروا الصحاري و زرعوا الأكثر من ٩٠ بالمئة من يابسة الأرض المهجورة دون الحاجة لاستيطان المرّيخ.

وقد ظهرت طرق جديدة لتقليل الانجاب و الصرف عن الزواج، مثل تسهيل الزنى قبل الزواج و الحث عليه، ثم الحث على اللواط و دعمه و الدّفاع عنه، واقناعُ النّاس أنّه مثل الزواج، و المخفيّ أعظم، و لعلها تبدي لنا الأيام ما خفيَ من الوثائق السريَّة.

أصل الابداع

أشكال الوجوه مختلفة و بصمة الأصابع فريدة، يرى النّاظر في أحوال الناس اختلافا بينهم و تفاوتا، و كما اختلفت خِلْقَتهم فهم ايضا في خلائقهم و إتقان المهارات مختلفون، ولعل الحكمة من ذلك ضرورة اختلاف الاشكال للتعارف وضرورة اختلاف القدرات ليخدم الناس بعضهم " يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ "، " أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ " فبعض الناس أمهر من بعض في أنواع المهارات و أشكال القدرات، وكما أنّأنَّ البصمة والأشكال يرثها الإنسان من أبويه منذ خلقه فإنّفإن جزءاً من القدرات التي يتفاوت بها البشر موروثة، ولكن عكسَ الصفات الجسمية فان المهارات أكثرُها مكتسب، و تكون الوراثةُ فيها بالتّعليم أكثر من الجين، و مثال ذلك ما يفعله التَّعليم من صناعة علماء هم نفسهم كان أجدادهم فقراء جهلاء.

وسنينُ الطفولة و الفتوة من العمر هي الافضل للتعلُّم، ينمو فيها الدماغُ ويتأثَّرُ تكوينه بما يتعلمه الطفل و يكون مهيَّأً للفهم و تشبع المعرفة، فإذا أُشغِل الطالب بتعلُّم شتات منفِّر من العلوم التي لا يَعرِف نفعها و لا يهتم بها بدل التَّعَمُّقِ في علمٍإتقان علم واحد بكل أساسياته ومهاراته و طرق الابتكار فيه قلَّت فرصة صناعة علماء عباقرةٍ مبدعين، و صار الطالب يحصِّل العلم النافع المشجِّع

على التَّعلُّم بعد أن يتقدم فيه السن و يتيبّس العقل، و تفوت فرصة تشبُّع العقل النامي، ولا يكون العلم بالعلم المتخصص ليصير جزءا من تكوينه و أعصابه وهويته.

ولو نظرنا في حال أغلب العلماء العباقرة لوجدنا أن غالبهم بدأ تعلُّم صنفِ العلمِ الذي أبدع فيه كبيراً منذ الصِّغر، و تشبَّعت به مداركه منذ طراوة دماغه حتى يصبح جزئا من طبيعته فيسهل عليه بعد ذلك التفكُّر في الصعب من العلم دون تكلف و ضجر و يستمتع في التَّعَمُّق و الابتكار، و قد كان بعض العلماء المبدعين يتعلَّمُ علما واحدا على حساب باقي العلوم، و يكون ساخطاً ثائراً على المناهج التعليميَّة الجبريَّة مقصراً عن تحصيلها، ينتقده الأهل والمعلمون وهو طالب، وينقد النظام التعليمي و يذمُّه و هو عالِم، فبدل أن يسهر الطالبُ الليالي في حفظِ أجزاءٍ من علومٍ لا يدري ما نفعها، يلهو باجراء التجاربِ و مطالعةِ الجديدِ و القديمِ من العلم الذي اختاره، دون التَّقيُّدِ بمنهاجٍ جامدٍ قاصر، يهتمُّ بمسائلِ تخصُّصه و يتفكَّر فيها كلَّ وقته و يتفرَّغ لها، ثمَّ ثم تتفجر في رأسه الإلهامات، ولو أنَّ هؤلاء العلماءَ العنيدينَ طاوعوا أهلَهُمأهلهم و مُعلِّميهم والتزموا المناهج التعليميَّة المفروضة عليهم لما وسعهم تجريب علمهم والتَّعمُّق التعمقَ فيه، و لربما لم تُكتشَف الاكتشافات التي اكتشفوها و كانوا إمّاإما غير متعلمين أو غير مبدعين، و لو تحرر العلم و التعليم اليوم لكثر العلماء المبدعون ليكشفوا من أسرار الكون ما يغيره.

في عام ١٨٩٥تقدم شاب ذكيٌّ طموحٌ لامتحان القبول الجامعيّ في جامعة المعهد الفدرالي للتكنولوجيا بزيورخ في سويسرا، و قد كان يحبُّ بعضَ المواضيع

التي كانت تدرَّس في المدرسة، و كان يتفكَّر فيها أغلبَ الوقتِ، و يغوص في بحارها على حساب باقي العلوم في المناهج التي كانت مفروضةً وتدرَّس، و قد تخالف وتخاصم كثيرا مع بعض معلِّميه حتى يئسوا منه، كَرِه الجبريَّة في النِّظام التعليميّ فعاقبه النظام، رسبَ في كلِّ الموادِّ إلا الفيزياءَ و الرياضيات، كان الشابُّ صَبوراً شجاعا بقدر ما كان ذكيا، لم يستسلم و لم يُحبَطْ، بل عادَ و دخلَ نفسَ الجامعة، وقد استمرّ عِداؤه للنِّظام الجامد و لم يتغير رأيه، و كان يختار و ينتقي من العلوم ويصبر على الإنتقاد، حتى يئس منه معلمو الجامعة و لم يسمحوا له بالاكمال معهم، فحزن قليلا و لكنّ عناده و حبَّ علمه صبَّراه، فاستمر في التفكُّر في العلم الذي اتقنه صغيرا، و راح يكتب من الأفكار ما يخالف المعروف عند الناس، و يرسلها أوراقا بحثية لعلماء عصره، فوقع بحثه يوما أمام ماكس بلانك و كان عالما مُنصفا، فعرف ما فيها، و أكبَرَ صاحبها وقرَّبه إليه، وأذاع لباقي العلماء ما لديه، حتى انتشر خبره و اشتهر أمره، فأصبحت الجامعات تتهافت اليه طَلَبا ان ينتسب اليها، ألبرت اينشتاين كان عنيدا صبورا شجاعا فلم يستسلم للنظام التعليمي المشتت، رغم ضغط الاهل و المعلمين و المجتمع، ورغم بؤس العيش، إلى أن أخذ بيده بلانك، وكم من أذكياءَ ليسوا عنيدين و شجعانا، فلم يتحملوا بؤسَ مصابرةِ الناسِ والمجتمع، فأطاعوا و انساقوا في النظام التعليمي المشتت القاتل للابداع، أو كانوا صبورين شجعانا فتمردوا على إضاعة أعمارهم، و لكن لم يجدوا عالما يحتَرِمُ ذَكائَهُم و ينشرُ إبداعَهم لبعدهم عن المنظومة التعليمية الرأسمالية المُعتَرَف بها، وماتوا بحسرة لم يستفد العالم من ذكائهم و ابداعهم.

و غيره كثيرون ممن تعلموا وحدهم أو انتسبوا للنِّظام التَّعليميِّ مع كرههم له وانتقادهم إياه، مثلَ نيكولا تسلا و توماس اديسون والاخوين رايت و فارادي وبلغيتس و ايلون ماسك و غيرهم، و قد ألَّف بعض المفكرين العقلاءِ من أهلِ الغربِ الكتبَ في نقد النظام التعليمي الرأسمالي و فساده، مثل المعلِّم الامريكي المشهود له بالابداع، و الحائز على لقب مدرِّس العام في مدينة نيويورك في الأعوام ١٩٨٩ و ١٩٩٠ و ١٩٩١ جون جاتو، والذي أعلن استقالته عام ١٩٩١ بعد آخر لقب، وبعد ٣٠ سنة من العمل في النظام التعليمي الرأسمالي، مُعْلِنا سببَ استقالته انه لم يعد يتحمَّل ما يراه من ظلم الأطفال في النظام المدرسي الرأسمالي و افساد ابداعهم وحبسهم في المدارس عن العلم النافع لحياتهم، و قد ألّف في ذلك كُتُبَاً كثيرة، و ما زال يحاول الإصلاح و يدعوا للحريَّة التَّعليميَّة حتى مات عام ٢٠١٨ ، وما زال صوته حيّا عاليا قويّا.

ومن الناس الذين نقدوا التعليم في النظام الرأسمالي دون أن ينتقدوا النِّظامَ كُلَّه علناً علماءُ النفس، من أصحاب النفوس الملكية التَّوَّاقَة لكشف كل غامض، الذين اهتمُّوا بالعقل البشري و حاولوا فهم ألغازه، و بحثوا في أسرار التعلُّم، ففكروا في التفكير و استفهموا عن الفهم، و قد عرف الناس قدرهم و نفع علمهم، ذلك أنّ الإنسان يولد إلى الدنيا حيث العلوم الهائلة حوله و هو لا يعرف شيئا " وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" فكلُّ إنسان عندما يولد يبدأ من الصِّفر مهما كان التطور حوله، و لو لم يتعلم شيئا لصار مثل إنسان العصر الحجريّ، فكان لا بد من

معرفةِ أسرارِ نقل المعلومات، ليلحق المولود الجديد علم عصره ويشارك في تقدمه وتقدم قومه.

ومن هؤلاء العلماءِ عالمُ النفسِ جيروم برونر المتوفى سنة ٢٠١٦ ، والذي قضى حياته يراقب الأطفال و غيرهم كيف يتعلمون، و يجرِّب الطرق المختلفة إلى ان اهتدى إلى نظرية اسماها التَّعلُّم المُتَدرِّجَ حلزونيّا، ففي إحدى دراساته جرَّب أنْ يُعلِّم الأطفالَ مبدأً فيزيائياً، فعرض عليهم فِلْما وثائقيا عن المبدأ، فيه تطبيقُ المبدأ و تعليمٌ عن الأدوات و حركاتها و الشرح المبسط عنها، فلم ينتبه له الأطفال رغم حثِّهم، ثم جعل أطفالا يلعبون بالادوأت نفسها بمساعدة معلمة، ثمَّ عرض عليهم الفِلْمَ الوثائقيَّ نفسه، فإذا بهم جميعا سكوتٌ منصتون، مندمجون معه بكل حواسهم، ممتدةٌ أعناقُهم بارقةٌ عيونُهم، يريدون ان يعرفوا و يتعلموا.

قسَّم برونر تعلم المبدأ العلمي الواحد إلى ثلاثة أقسامٍ متداخلةٍ متتابعة، أوَّلُها أنْ يشهد الإنسان ما يريد تعلمه بعينيه و يمارسه بيَديه، حتى تتوقد في نفسه رغبةُ التعلم فيعرفَ ما يريدُ تعلُّمه و نَفْعه، و يكون بعد ذلك التَّعلُّم متعة وكشف المجهول مكافأة و لا حاجة لغيره من المكافأآت و لا للعقوبات، ثم اذا به يندفع وحده إلى الرحلة الثانية من التعلم و يطلبها، و هي العرض المبسَّطُ للعلمِ صورا و اشكالا و أفلاما، ثم المرحلة الثالثة من المفاهيم و الكلمات و الأرقام، و التي تحلُّ الغموض الذي كونته التجربة و المشاهدة في رأس طالب العلم، وتُمتِّعُه وتجعلة عالما بما اكتُشف قادرا على استنتاج علم جديد، ثم بعد تعلُّم المبدأ و اتقانه ينتقل إلى مبدأٍ آخرَ أعقدَ من الأوَّلِ معتمدٍ عليه، بالتَّدرُّج و باستخدام الخطوات الثلاثة لتعلُّمِ كلِّ مبدأ، و لا يزال يتقدم في العلم حتى يصير عالما داهية مبتكرا.

و قد حُرِم الاطفال و حُرِمت أُمَّتُهم حتى الان الانتفاعُ بالطريقة التعليميَّة المتدرِّجة حلزونياً في نظام التعليم الرأسمالي، لأنه يصعب تطبيق الطرق الثلاثة على العلوم الكثيرة المتنازعة المتقطِّعة، و لا يتراكم العلم الواحد في نفس طالب العلم و لا يتقنه لكثرة التنقل بين العلوم.

نصح برونر بتوجيه الأطفال إلى تجريب ما سيتعلَّمونه بتوجيه رفيق من أهل الاختصاص، مع وضعِ برنامجٍ موجَّه متدرجٍ للمواد التعليمية المصورة بالفيديو والمكتوبة بدل التنقل بين العلوم و إجبار الأطفال على العلم فلا يتعلمون ولا ينتفعون.

ومن علماء النفس المشهورين الذين وَصَفوا العلم النافع و مقدار تحصيله عند طالب العلم بنجامين بلووم، و قد وافق بلووم من سبقه أنَّ العلمَ إما أنْ يُحمَلَ فقط و إما ان يُستعمَل، و جَعَلَ أرذل درجات التعلُّمِ الحمل، و أتبعه بخمس درجاتٍ من الاستعمال، فأوَّلُها و أقلُّها و أصعبُها الاستعمال بالتخيُّل، و تجريبُ تطبيقِ العلمِ داخلَ الدماغ لفهم المعلومات، ثم الاستعمال بالتَّطبيقِ و الممارسةِ واقعاً و هو أسهلُ و أسرعُ للتَّفهُّم، و يعينُ على حملِ مزيدٍ من العلمِ و فَهمه و تطبيقه، ثم يكون تحليلُ ما قام به العلماء و تحليلُ أجزاء المعرفة و مقارنَتُها ببعضها و بغيرها من المعارف، ثمّ بعد ذلك التقييمُ و عدمُ التسليمِ بما كان من العلم، و انتقاد ما لم يكن واضحاً معقولا، و تخيُّل احتمالات أخرى غير التي كانت عند السابقين، ثم تكون مرحلة الابتكار و الابداع و لا تكون إلا بعد هذه الخطوات السِّت. و ان هذه الخطوات لتحتاج لوقت طويل للعلم الواحد لا يكون مع المناهج الدراسية المُشغِلَة بمجتزئات العلوم، و نصح بلووم بمعاملة كل عقل وحده لاختلاف

استعدادات الناس، وان لا يُجعلوا جميعا في صفٍّ واحد يتلقَّنون العلم معاً، وأغلبهم و إنْ اجتهد فإنَّه حامل للعلم دون استعمال.

وقد اشتهر في علم النفس التطوريّ عالمُ نفس مشهور هو إيريك إريكسون، اهتم به و أقبل عليه أصحاب الأمراض و المشكلات النفسيَّة، لمهارته في معرفة أصول مشكلاتهم و نبش ذكرياتهم و قصص طفولتهم و مساعدتهم، و هو اهتمَّ و أقبل على هذا النوع من علم النفس الذي يبحث في أصل صفات الإنسان وتغيُّرَها بتغير سنِّه، و تأثير أهله و غيرهم ممن حوله عليه و على طباعه، وقد لاحظ ظروفاً متشابهة من أخطاء التَّربية و مؤذيات النفس، تتكررُ نمطاً قبل كل عقدة ومرض نفسيّ، فوضع نظرية ذكر فيها سوءَ الظروفِ و أخطاءَ الأهلِ المسببة لكل مشكلة، و متى من العمر أشدُّ ما يكون أذاها و تاثيرها في الطِّباع .

والناسُ يرجون الخير لأبنائهم، و لكنَّهم قد يوصِلُهم الطمعُ بالأحسَنِ إلى السيِّء، فيَقْسُونَ على الأولادِ بما يضرُّهم و لا ينفعهم، و نفسُ الإنسان و غرائزه تولد مع جسده على الفطرة بدوافعها الثلاثة، نقيةً قويَّةً بريئةً بسيطة، قد خُلقت تَدْفَعُ إلى حفظ النفس و طلب الحقائق و اعتقادها، فالنفس البهيمية تطلب ما يُصلح أمر الجسد و هي أوَّل ما ينطلق من نفس الطفل و هو ضعيفٌ توجِّهه إلى الطعام وغيره من حاجاته، ثم النفسُ الغضبيَّةُ ما تزال تحاول أنْ تنطلقَ عند الجنين، فيركلُ الطفلُ رَحِمَ أُمِّه يعلن أحقيَّته في الحياةِ و تحريكِ جسده، و ما يزال يعبِّر الطفلُ عن حريَّتِه و هو يكبر، فإذا تعلَّم إمساك الأشياء ربما استأثَرَ بالشيءِ ثم رماه من يده فجأة مستمتعا بحريَّته، ثمَّ يحاولُ جاهدا أنْ يمشي و يأكلَ وحده، ثم يظلُّ يطلبُ الحريَّة والتقدير وما يقاربها و يتفرَّع عنها من الصفات، والنفس الملكيَّة تطلب

المعرفة و العلم و تثيرُ الفضولَ، فينظرُ الطفلُ حوله مستكشفا باحثا منذُ الولادة واذا تمكَّنَ أمسَكَ ما استطاع متفحصا، يحفظ الأشكال و الأحجام و حتّى المذاق، ثمَّ اذا قَوِيَ فِعلُه و احتَدَّ عقله جعلهما وسيلة للإستكشافِ و التَّعلُّم، يغامرُ في الأماكن و يلعب في الأشياء و الأدوات و يسأل عن كل غامضٍ و مجهول، ثم يقلِّد أعمالَ الكبار و يجرِّبُها يريد ان يتعلَّم ما يعْلَمون و يُتْقِنَ ما يُتْقنون و هو مستمتع يلهو، و قد لاحظ اريكسون أنَّه اذا قُمِعت هذه الفِطَرُ النفسية و قُهِرت إرادتها تشوَّهت النفس و تجرَّحت بمقدار القمع و الإجبار، و ظهرت الجروحُ طباعاً فاسدةً و عُقَداً نفسيةً عند الطفل لا تزول عنه، إلا أنْ يُعالِجَها الإنسان الذكيُّ اذا عَقِلَها واعترف بها، و عرفَ أسبابها و اجتهد في تغييرها و الثورة عليها، وقد يبالغ في تغييرها و الثورة عليها بلا اعتدال حتى يتحول من العقدة الأولى إلى نقيضها عقدةً ثانية. فهو قبل ان يدرِك بعقله ما حوله و هو صغير لا يفهم الخير و الشر يكون عقل أهله عقلَه، فأمْرُهم و زَجْرُهم يصير ضميرا خفيّاً ما يزال مع عقل الإنسان عند الكبَر، و الأهل يؤدِّبون فطرة أبنائهم و يعلِّمونهم ما يرون من القيم والاخلاق، فتتغير نفس الإنسان و يتشكَّل ضميره حسب ما تربى عليه.

لا بد من تأديب الأبناء لكي لا يتأدبوا بالمصائب إذا انطلقوا بفطرتهم البسيطة في الدنيا المعقَّدة، و قد قيل من لم يؤدِّبه والداه أدَّبه الزمان.

يروي أصحابُ الأخبار انَّ رجلا أعرابيا بسيطَ الفطرة، منطلقٌ بلا ضابط عن الرغائب مانع، ولا موَجِّه إلى المكاره دافع، فتشارط مع أصحابه ان يُظهِر شجاعته و يعتدي على سلطان عصره معاويةَ ابن ابي سفيان، وكان معاويةُ حليماً يفتخر بعظيم حلمه، فعَزَم الاعرابيُّ أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يده على

كفله ويقول: سبحان الله يا أمير المؤمنين! ما أشبه عجيزتك بعجيزة أمّك هند! ففعل ذلك. فلما انتهى معاوية عن صلاته لم يبطش به ولم يعاقبه وتركه إلى سبيله.

ثم خاطر أيضا أن يقوم إلى زياد ابن معاوية وهو في الخطبة فيقول له معتديا: أيها الأمير، من أبوك؟ ففعل. فقال له زياد: هذا يخبرك- وأشار إلى صاحب الشّرطة- فقدّمه فضرب عنقه. فلما بلغ ذلك معاويةَ اهتمَّ و نَدِم و قال: ما قتله غيري، ولو أدبته على الأولى ما عاد إلى الثانية.

و انه إذا أدَّب الاهل أولادهم جنَّبوهم مثلَ فعلِ هذا الاعرابي و سوءَ عاقبته، و لكن التربية لا تكون بالقمع و العنف، بل بالتَّوجيه اللَّطيف الممزوج بالرِّفق والحزم، لينٌ بلا ضعف ثم إذا كان لا بد فشدَّة بلا عنف، و انَّ عنف اللسان لأضرُّ من عنف اليد، فكما قال الشاعر

و قد يرجى لجرح السيف برء و لا برء لما جرح اللِّسان

فمما لاحظه إريكسون أنَّ الطفلَ منذ ولادَتِه و حتّى عمرِ السَّنَتَين إذا لم يرعَ أهلُه حاجات جسده ربما لانشغال و إهمال صار منطويا متشائما، ثم ترافقه هذه الصفة و هو يكبر، فيقلُّ نُموُّه و يتأَخَّر عقله و تفسد المزيد من صفاته، إلى ان يكبر و يعقل و ما زال يتذكر بلا وعي حرمانه من حاجته و هو أضعف ما يكون على اكتسابها فيصير متشائما شَكّاكا لا يثق بالدنيا و لا بالناس.

و إذا قَمَع الأهلُ حريَّة الطفل و أجبروه على رأيهم قهرا فانهزمت إرادته فإن أثرَ الضَّرر النفسيّ يظهرُ طِباعا مذمومة و عقدا حسب وقتِ القمع و الاجبار، فاذا

كان وقتُ القمعِ وقتَ تعلُّم الطفل الكثير من المهاراتِ الحركيَّة قبل عمر الثلاث سنين و مَنَعَ أهلُه حريَّته بدل ان يشجعوه و يعينوه صار مترددا خجولا متأتِأً.

وقبل عمر الخمس سنين يبدأُ الطِّفل يُجرِّب كيف يخطِّط و يفكِّر، و يُنفِّذ ما استطاعه من الأعمال البسيطة، مثل الأكل بيده و لبس ملابسه و اللعب مع أقرانه و بالأشياء من حوله و استكشافِ المجهول، فاذا قُمِعت إرادته بالعنف بدل التوجيه الليِّن و التَّشجيع جَبُن عن التجريب و المبادرة عند ما يكبر، و قلَّت شجاعته وصار تابعا لا يحب ان يقود غيره في شيء لما يُلِحُّ عليه ضميره من الإحساس بالذنب

ثم من عمر السادسة و حتى الثانية عشر يتفتَّح عقلُ الطفلِ و يدرك، فتنطلق النفس الملكية تطلب العلم و المعارف من خلاله، فمتعة الطفل ان يسأل عن كل شيء و يثيرُ فضولَه كلُ غامض، و يُرضِي نفسَه ان يزيد على أقرانه بما اكتسب من المعارف والثَّناء، و يبدأ ينظر إلى المجتمع حوله و إلى الأدوات والمهارات الحِرَفيَّة عند الناس، فيحاول ان يتعلمها و يستعمل أدواتها بشغف، و قد يعطيه أهله و مجتمعه ما يشبه العلوم الحقيقيَّة و أدواتِ عصره من الالعاب المقلِّدة للحقيقة، يُلْهي بها نفسَه الملكية و يخدعها عن العالم الحقيقي و مشاغل العلماء و عَمَلِهم و عِلْمِهم، حيث قد جُبِلَت نفسه على تقليدهم و تعلم ما عندهم، فيخسر استغلال فطرته في تعلم النافع و التعلُّق فيه، ويتعلَّق بالمزيَّف التافه المشغِل عن الواقع و يتعود عليه، و إنَّه اذا قُمِعَ عن فضوله إلى العلم أو أُجبِرَ على غير طريقته في طلب العلم باللعب الذي هو وسيلته العجيبة للتَّعلُّم أو اذا انتُقِصَ من قَدْرِه و قُدرَة عقله أحسَّ بالنقص و الهوان، و تأذّت نفسه الملكية و ضعف عن

طلب المعارف و العلوم، ثم لا تزال هذه صفته و لا تزال تضره ما عاش، إلا ان ينتبه لماضيه و يجتهد في تغيير ما انزرع في باطن عقله في تلك الفترة.

ثم تكون فترة حاسمة فاصلة عند احتداد العقل و اشتداد العزيمة فترة البلوغ و الجهازيَّة للدنيا، وقتُها تقريبا منذ الثانية عشر و حتى الثامنة عشر، يجمع فيها الإنسان ما تعلَّمه و تربى عليه قبل البلوغ من القيم و القناعات، و المعارف والمهارات ، فيوفِّقها معا لتُشكِّل هويَّةَ نفسه و عقيدة قلبه و منهج حياته، يُفَرِّق بها بين الخير والشَّر و يستعين بها لتفهُّم غرائب الدنيا وأسئلة الوجود وتحمُّل المصاعب و تحصيل المطالب، فيقرِّر دينَه و إنتمائه ، فاذا اختلفت في قناعته أشياءُ اجتهدَ يوفِّق بينها و يختار أصلحها و أحقَّها لتكون جزئا من شخصيته و عقيدته وهويته، ولكنه اذا فشل في التوفيق بين قناعاته وكثرت عليه المشتتات وتصارعت عنده المتناقضات من نصائح أهله و بيئته و حديث نفسه و لم يَخْلُص إلى قرار ظلَّ حائرا طول حياته. و انّ الإنسان فترة حين يبلغ ويتوق إلى الانطلاق إلى الدنيا يرضيه ويسعده ان ينفع الناسَ و ان يُقَدِّروه، و يتشوَّق ان ينتمي إلى جماعة يفتخر بها وتفتخر به ولو كانت جماعةً مشجعةً لفريق كرة قدم، فإذا حار في معرفة نفسه وبناء هويته فسد عنده شعور الانتماء، و قلَّ عنده الوفاء، ثم تستمر هذه الأخلاقُ معه تُفسد عليه بقيَّة حياته. و قد ذكر إريكسون من آثار الحيرة في الهوية إذا اشتدَّت في هذه الفترة أيضا انطلاقَ الشكِّ و الحيرةِ على سائر ثوابت الإنسان وقناعاته، تصير الحيرة خُلُقا عميقا و عادة يفعلها بغير قصد، فيشملُ الشكُّ قواعد عقيدته و يَحارُ في ولائه إلى أي جماعة و في جنسه ذكرا ام انثى فيزيد الضرر والعُقَد، و يحاول المتحيِّر أحيانا ان يطمس أَلَم الحيرة من خلال التعصُّب إلى

جماعة، ليعوِّض عن ضعف شعور الانتماء و قلَّة الاستقرار. و لا بد لمن ابتُليَ بشيء من هذه الصفات و عزم تغييرها ان يوقِفَ مشاغل حياته فترةً ويتفكَّرَ بعقله في أمر نفسه و يراجعَ ماضيه، و يجتهدَ لتوسيع بحثه في الآراء والحجج من غير مألوفه مما لم يكن يعرفه، ليجد ما كان غائبا مما يقتنعُ به عقلُه ويطمئنُّ له قلبه. و إنَّه من الصعوبة ان يُدخِل الإنسان في هويته شيئا بعد فوات فترة البلوغ اذا كان ليس له حججٌ مقنعةٌ فاصلة، فيصعب عليه مثلا ان يصير مشجعا منتميا لفريق كرة قدم و يجعله من هويته منتميا اليه دون غيره أو ان ينتمي لحرفة من الحرف فتصير جزءا من هويته ما لم يجعلها من هويته في تلك الفترة الاولى حين يكون القلب بسيطا و العقل بريئا، و قد جعل الاسلام فترة أوَّل الشباب و البلوغ الحدَّ الفاصلَ بين الطفولة و انطلاق التَّكليف، فبعد البلوغ يصير الطِّفل رجلا كاملا في الإسلام، و يحتفل اليهود كذلك اذا بلغ الطفل بأنَّه لم يعد طفلا وصار بالغا مثلهم، وقد أسماها الناس اليوم فترة المراهقة، و جعلوها جزءا من الطفولة و ما يلزمها من استصغار و يتبعها من إجبار، فيُحبس الناس في المدارس في هذه الفترة و قبلها وبعدها، يُلَقَّنون فيها العقائد العالمية و غيرها من متناقض العقائد والمعارف والمهارات، و يؤخَّرون عن الحياة السليمة الحُرة و عن إختيار مُستقبلهم و حياتِهم، ليتأخر عمر زواجهم فلا يكثروا في الأرض عددا، رغم معارضة فطرة الإنسان ورغم سوء اثر ذلك على بناء الهوية و الحيرة فيها و ما يتضرره الناس من العقد والمشاكل النفسية و سوء التعلُّم.

ان الإنسان ذو عقل و إرادة و قد ينتبه لصفة سيئة اكتسبها و هو طفل، فإذا أراد تغييرها وجبَ عليه ان يتعلَّم الصِّفة الحميدة المناقضة لها من الحكماء

العالمين بمكارم الاخلاق، حتى يقتنع بها و يحبَّها و يتعلَّم مواضعها من المواقف والظروف، لكي لا يغالي فيصير متطرفا إلى خلقٍ سيءٍ آخرَ قد جانبَ الاعتدال، ثم عليه ان يجتهدَ في التخلُّق بالخلق و يحرصَ عليه مع المشقَّة مدَّةً من الزمن إلى ان يصير عادةً فيه، يفعله دون قصد و جهد.

ثم تكون مرحلة التَّعاون والتَّشارك والزواج بعد مرحلة البلوغ والاستقرار، فيحبُّ الإنسان ان يُخالِط هويَّتَه بهويَّةِ غيره ويتعارف ويتودَّد، فاذا كان الشاب حائراً لم تستقر هويته بعدُ لم يُحسِنْ مصادقة الناس ولن يحسنَ الزواج، وفترة الشباب بعد الاستقرار وهي لا تزال في القلب رقَّة هي التي يتعلم فيها الإنسان صفة المودَّة بين الأزواج و فنونها، فاذا تأخر عن الزواج إمّا لانه لم تستقر هويَّته بعدُ أو لغيره من الأسباب قلَّ خُلُق المودَّة عنده وهو من أعمدة البيوت، فاذا حُبِس الناس في المدارس والجامعات عن العلم النافع و تعلموا متناقضات الأفكار بما يضر بناء هوية واثقة و تأخر الزواج عن وقته فإنَّه يكثر الطلاق.

انَّ الشاب اليافع الراشد القوي مفطور علي ان يسعى للزواج بدافع غريزي نفسي مُلِحّ، وغالبا ما تزيد الرغبة بمقدار قوة الشاب وسلامة صحته، فتكون الشهوة دافعا محركا للشباب السليمين للعمل و طلب الزرق و نفع المجتمع، كلٌّ على قدر استطاعته عقليا و جسميا، و تشتد العزائم و تعلو الهمم و تسرع الخطى بمقدار الدافع النفسي و الذي يزيد بزيادة الصحة و العقل، فاذا وجد الشاب القوي الصحيح الراشد ان لا سبيل للاسراع و طلب الرزق كما هو الحال في النظام التعليميّ الرأسمالي لجمود السنين التعليمية الطويلة المنقطعة عن واقع الحياة وآمالها و نافع علومها، صارت غريزته دافعا للمنكرات يجب قمعها و تأخيرها، وانه

لم تُكتشَف طريقة آمنة حتى اليوم لتأخير سن البلوغ حتى تنتهي سنين التعليم الطويله المضيعة للعمر بغير نفع، و الأَولى ان تُصَمَّمَ الأنظمة و تتكيَّفَ لنفع الناس و تعليمهم العلم النافع الواضح الأثر المشجِّع للنفس لينتفعوا علما و يصلح امرهم.

ثم تكون مرحلة باقي عمر الشباب التي يحبُّ الإنسان فيها أنْ يعتني بغيره وبأُسرته و ينفعَ مجتمعه، و تصيرُ راحةُ نفسِهِ و رضاها بالإبداع و الإنتاج و المزيد من التعلُّم و الاكتشاف، وأكثر ما تكون متعته في التخصص الذي جعله من هويته و هو طفل فأحبه، فهو يستمتع بعمله الذي هو جزء من هويته و يعتبره راحته و ليس يعمل للمال فقط و لا يتحيَّن الاجازات ليرتاح منه، و يُحبَط الإنسان في هذا العمر إذا أحسَّ انه غير منتج و لا مبدع.

ثم تكون مرحلة الشيخوخة حين يعرف الإنسان انَّه غالبا لن يبقى له وقت ليبدأ تغييرا جديدا في حياته يتوقع ان يكمله، فينصبُّ اهتمامه على ما مضى من عمره و الالتزام بمبادئه و إكمال ما لم يُكمِله، فيَظهَرُ عنده صفة الحلم و الثبات على المواقف و الاستقامة، و هي صفات يحبها الناس في قادتهم لذلك يكثر ان يكون القادة كبارا، و انَّ الكبار يحبون توريث معارفهم و حِكَمِهم و مهاراتهم ويستمتعون بالتعليم و التوجيه و النصح، و يكتئبون اذا لم يجدوا طالبا لعلمِهم وحكمتِهم و هم أخبر الناس في العلوم و أمرَسُهم في مهاراتها و أجمعهم لأسرارها وأحرصهم على تعليمها .

فكانت خِلقة نفس الإنسان قد فُطِرَت على نقل المعارف عبر الأجيال، فالصغار الجاهلون متعتهم و لهوهم في التعلُّم والتعرُّف والتدريب، و الشيوخ الحكماء العلماء المهرة متعتهم في التعليم و توريث المعارف و المهارات، وكأنّنا

بالجيل الأول من علماء المسلمين اذ العلماء الشيوخ يعلِّمون تلامذتهم ابن سينا وابن الهيثم وابن حيان و الخوارزمي و الزهراوي و غيرهم مثل أبنائهم منذ الطفولة إلى ان يأخذوا العلم عنهم، و يشكر التَّلاميذ مُعلِّميهم كآبائهم، و يبدعوا في العلوم و يبتكروا ثم يورثونها تلامذَتَهمُ و كلُّهم يستمتع بذلك و يفضله على غيره من نعيم الدنيا لموافقتهم الفطرة، مع أنَّ علم عصرهم كان قليلا ولا يحتاج ان يتعلمه الإنسان منذ الطفولة من الشيوخ العلماء، و إنّا اليوم لأحوج لاتِّباع الفطرة طَلَبا للسعادة و لننهض بعلوم العصر.

ترى الشاب القوي العاقل اليوم محبطا يشغل سنين الجبر باي شيء يسليه عن بؤس حاله و احباطه، يرى ان لا نفع من أغلب ما أُجبِر على تعلُّمِه و تأخرت حريته بسببه، يحسُّ نفسه عالة على أهله لا رأي له و لا مال و لا هِمَّة، سيظل يأخذ ماله عطاءً من أبيه زمنا بعيدا لا يمكنه تقريبه بجهد و لا نشاط، يُعامَلُ كالطِّفل ويوصف بالمراهق، و قد كان مثله يقود الناس في سابق الايام، و لو حاول الشاب إصلاح أُموره ما اسطاع إلا ان يترك نظام التعليم المشتِّت جملةً و يعمل في وظائف زهيدة الاجر فيعيش بلا تعلُّمٍ فقيرا منهكاً، و اذا التزم بالنِّظام القسري و اشتدَّت به غريزته و لم يجد أملا في زواج قبل ذهاب زهرة شبابه يسعى اليه بكل همته ولم يتقِ الله وقعَ في الحرام و الآثام حتى يألَفها فتصير من عاداته طول حياته، ثم يشيبُ و ينجبُ ابناءً يقعون من يده في نفس النار التي وقع هو فيها و ليس له ان ينقذهم منها، و تدور الدائرة حتى يفسد الجيل، و ترى العوامَّ ينتقدون الجيل كلَّه وشبابَه و يلومونهم و يقارنوهم بالاجيال السابقة، ولم ينظر أحدٌ من المنتقدين المخطئين في أسباب هذا الفساد ليغيروه و يعارضوه.

طريقة تأخيرِ تعلُّم العلم العامِل النافع و تأخيرِ عمر الإنتاج بوضع العوائق قبلها مفسد للقيم و اخلاق الأمم، و قد تختلف القيم الخُلُقيَّة بين الأمم ويتفاوت تصنيف الأخلاق بينهم، وغالبا ما تكون الأديانُ المصنِّف الأقوى للأخلاق خيرا أو شرا إضافة للوازع الفطري و حب الذكر الطيِّب بين الناس، أمَّا الوازع الفطري وحبُّ الذكر الطيِّب فمشترك عند كل بني آدم، و إنما يختلفون في ما يؤمنون به ويتبعونه من الأديان والمعتقدات والشرائع، فيكون تأثير النِّظام التَّعليميِّ على الخلق مختلفا بين الأمم مقدارَ اختلاف قيمة الاخلاق فيها و مقدار اتِّباع أهل كل دين دينهم، فتأثُّرُ أخلاق أمّة المسلمين أكبرُ من أمم الغرب لانهم أقرب لدينهم من الأمم التي ساد فيها الالحاد و نَبْذُ الدِّين، فمن هجروا دينهم فما عادوا يقدِّسون ما يأمُر به من الفضائل و ينتهون به عن الرذائل ليس للفساد المتولِّد عن النظام التعليمي أثر عليهم لما هم فيه من فساد الخلق إبتداءً.

ان من معاني الحكمة فهمَ الامور وهي مقبلةٌ قبلَ ان تحدث، فاذا حدثت وظهرت آثارُها وجبَ على الجميع فهمها و ملاحظتها و من لم يتنبه بعد الرؤية فإمّا لحمقٍ و سَفَهٍ أو لعنادٍ و تعصُّب، و ان الواجب على من رأى المنكر ان يغيِّره بيده أوبلسانه أو بقلبه و ذلك اضعف الايمان، و ان في إلزامِ الأطفال و الشباب بسنين طويلات تحول بينهم و بين مستقبلهم والعلم النافع لهم أذى عظيما وفسادا منكرا، فاذا غفل مفكرو الأمّة أوَّل الأمر عن أضرار اتِّباع النظام التعليمي الرأسمالي قبل تطبيقه لثقتهم العمياءِ في مفكري الأمم الاخرى و الطمع الساذج في نسخ تفوقهم، فلا عذر لهم اليوم و قد ظهر أثره و عمَّ ضرره .

المحتوى العلمي

تُقسَم العلوم بشكل عام إلى علوم غاية و علوم وسيلة، أمّا علوم الغاية والتي تُسمَّى أيضا علوم المقصد فهي العلوم التي تخدم الإنسان مباشرة، و أمّا علوم الوسيلة و تسمى أيضا علوم الآلة فهي العلوم التي تخدم علم الغاية و لا ينتظم حال علم الغاية إلا بها، و لكل علم غاية علوم وسيلة يرتكز عليها و لا يحتاج غيرها من علوم الوسيلة أو علوم الآلة، و انّ هذه العلوم كلَّها ما تزال تتغيَّر وتتطوَّر، كلَّ ما اكتَشَف العلماء جديدا منها يخطِّيء ما كان قبلها، و ان تعلُّمها ضروريّ و لكن الأهمَّ من تعلُّمِها هو تعلُّم كيف اكتشفها مَن اكتشفها و ان يُجرِّب الطالب ذلك بنفسه فيكتسب طرق الاكتشاف و الابداع و يحب العلم فتظل روحه مقبلة على العلم و طلبه ما عاش و يكتشف هو بعد ذلك

و مثالٌ على علمِ غايةٍ و علومِ الوسيلةِ التي يحتاجها علمُ صناعة الآلاتِ مثل السيارات و غيرها من الآلاتِ و حاجَتِها لقِسمٍ من علوم الحساب و علوم الاشكال و الاطوال و الاحجام و علم المسنَّنات و نقل الحركات و علم البرمجة المختص بهذا المجال و قد يحتاج بعض ما يخصه من علوم العناصر و الكيمياء والتعدين، و مثال آخر علمُ الجراحة و هو علم غاية يحتاج لعلوم وسيلة مثل علم تشريح أعضاء الجسم و علم الآلآت المستعملة في الجراحة و مهارة استخدامها وعلم الامراض و بعضِ ما يخصُّة من علوم الاحياء و الكيمياء و الادوية ثم علم الكلام و بعض الحساب، و مثال آخر علم القضاء و هو علم غاية يحتاج لعلوم

وسيلة مثل علم اللغة و الادب و القانون و علوم الدين و الفقه و علوم الكلام والفلسفة و بعضا من علم الحساب .

وانَّ الإنسان لا يزالُ يطلب العلم من المهد إلى اللَّحد، وانّه لا يُمنَعُ صاحبُ علم الغاية إذا اختصَّ به و أتقنه ان يتعلم ما شاء من العلوم الأخرى و لكنْ بعدَ ان يُتقن علمه و يبرع فيه، فينطَلِقُ من العلم الأول أساسا وأصلا إلى إتقان المزيد من العلوم مُتفرِّعا متوسِّعا بما ينفع علمه و يزيدُ قدرته، ولو أراد طالب علم القضاء تعُّلم الكيمياءِ و التعدينِ لم ينفعه ذلك في مهنته، و الأحسنُ إن أراد تعلُّم ما لا ينفعه من العلوم أن يؤخِّرها حتى يبرع في تخصصه و ليُسخِّر أولَ عمره في تشرُّب فنون تخصُّصه و يجعلها جُزئا من هويِّته ينتمي اليها و يحبُّها فيصبح عالما داهية فيها، و مثل ذلك لكل أنواع علوم الغاية المتخصِّصة .

وقد يتعلَّم انسانُ علما من علوم الوسيلة و يختصُّ به ليكون مرْجعا فيه لغيره من أصحاب العلوم الأخرى إذا اختلفوا في علمه، على انَّه يكفي قليل من العلماء للقيام بهذا الدَّور، و الأحسن أنْ يتعلَّم أكثرُ الناس علوم غايةٍ تنفع الناس ثم يتعلمون علوم الوسيلة التي يطلبها علم الغاية، و إنَّ طالب علم الغاية غالبا سيتقنُ العلوم الوسيليّة أكثر ممن لم يقصد علم غاية، ذلك ان علم الغاية سيكون دافعا حاثّاً على تعلُّم علوم الوسيلة فيكون تفهُّمُها محبوبا مُيسَّرا و إتقانها أسهل وأكمل.

لو اختَبرنا أعلمَ الناس في تخصصاتهم اليوم من المشهورين المبدعين في مختلف العلوم ببعضٍ مما يُعلِّمُه أبناؤهم في المدارس فسألناهم عن ما هو من غير تخصصهم لما عرفوا جوابا، فقد اشتملت المناهج في معظمها على علوم وسيلة لا

يستخدمها و لا يحتاجها إلا القليل من خاصة الناس، و مع ذلك يُجبَر كلُّ الطلاب على تعلُّمها إجبارا و يُخَبَّأُ عنهم حقيقة نفعها لانّها لن تنفعهم، فتكونُ صعبةً عليهم مضجرةً لهم، ثمّ تُجعَل فيها الاختبارات الدقيقة لفحص مقدار تحصيل الطلاب لها، و يُبنى على قدر تحصيلها مستقبل الطلاب.

****

وهم التفضيل بين العلوم و الاختيار بينها

غالبا ما يكون التفضيل بين العلوم في المجتمعات حسب مقدار المال الذي يكسبه عادة صاحب العلم عند اتقانه و العمل فيه، و قد يتغير هذا بحسب ظروف كثيره أهمُّها مقدارُ حاجة الناس لمتقن العلم و عدد المتقنيين له، فكلَّما زادت حاجة الناس لعلمٍ زاد تفضيله، و كلما كثر مُتقِنوه قلَّ تفضيله، و ليس علمٌ بأفضلَ من علم إلا علومَ الدّين لمن آمن بها لما لصاحبها من أجر الآخرة، ومع ذلك فلا ينبغي ان يكتفي بها من يقتدي بالأنبياء الذين تعلموا علوم الدنيا و عملوا بها و نفعوا بها الناس و طلبوا الرزق، ثم كانوا أدرى بأُمور دنياهم و أنفع للدين.

و من الناس من يفضِّل علما على غيره من العلوم اختيارا و رغبة، و السببُ في ذلك غالبا مؤثِّر قويّ في النفس في سنِّ الطفولة، و ليس سبب تفضيل كلِّ طالبٍ علما و اختياره ليتخصص فيه إلهاماً ربانيا أو حبا فطريا، و غالبا ما يكون المؤثر هو رغبةُ والدا طالب العلم، فكما قيل ان الحب و الكره يورثان.

و قد لا يختص الطالب في العلم الذي فضَّله أول مرة بسببِ طبيعة النظام التعليميّ الذي يجعل إتقان أصناف كثيرة من العلوم المختلفة التخصصات شرطا للتخصص في أحدها، و ربما حُرِم اكمال التعليم جملةً لعدم اتقانه واحداً من العلوم التي لم يحسنها فترةَ ما قبل الاختصاص.

و مع أنَّ أكثر الناس اليوم يختصُّون في العلم الذي ساقتهم اليه ظروف الحياة مع قليل من الاختيار إلا ان الإنسان مجبول على حب نفسه و قبول واقعة ولو بعد رفض قصير، لكي لا يظل ساخطا حزينا مُتألِّما، يُقنعُ نفسَه انَّ تخصصه هو

الذي يلائمه و أَنَّهُ من اختاره دون باقي العلوم، و ربما ساعد ذلك على تكوين روح العزيمة بما يحقق بعض الإبداع، و قد يقتنع الطالب أنّه من اختار العلم كل الاقتناع و يظنَّ أنّ ما مر به هو أفضل ما هو ممكن من أثر هذه الحيلة النفسية، فيصيرُ شاكرا ممتنّا للنظام التعليمي الذي أوصله لحاله في آخر الأمر، و هو لم يجرِّب غير هذا النظام و لم يفكِّر حتى في غيره، و لم ينظر متمعِّنا في آثاره و أضراره، بل مشى مع الناس حيث يمشون دون تفكُّر.

و أغلبُ من يلتزم قوانين النظام التعليميّ و يجتهد في اتِّباع متطلباته هم أهل القراءة و البحث من الناس، حيث استطاعوا قراءة العلوم المجزوءة و تفهُّمها ثم النجاح في امتحاناتها، ليختصّ الطالب بعد ذلك في علم جديد، و أكثرُ الناس قراءة و نجاحا في العلوم المجزَّأة يتجمعون في تخصصات معينة بحسب نتيجة اختبارهم في العلوم الجزئية، و قليلٌ منهم من يختصُّ في باقي العلوم، و تُحرَم باقي التخصصات من هؤلاء المتقنين لمهارة القراءة و البحث مع حاجة المجتمع للقراءة والبحث في كل التخصصات، و يُحرَم هؤلاء من الوصول لبعض التخصصات والتَّفوُّق فيها، و قد ينصرون أمَّتهم بتفوُّقهم فيها على الأمم الأخرى.

فلو صار تعليم العلوم المتخصِّصة يبدأ منذ الطفولة لتوزَّع القراء على كل التخصصات و انفتح المجال للجميع ليتعلم أيّ علم، ثم يصير مقياس التفضيل هو المهارة و الابداع و الاتقان لكل علم لا تفضيل علم على آخر و لكثر العلماء في كل التخصصات، ثم يصير الواجب في اختيار العلم الأحسن و الانفع للابن على الوالدين وأولياء الامر بعد البحث و الاستشارة و النَّظر في تقدم العلوم و تغيُّرها وتغير حاجة الناس اليها.

عوائق تغيير النظام التعليمي

الإنسان عدوٌّ ما يجهل، فهو يحبُّ ما تعوَّد عليه و أَلِفه، و انَّ أول كُلِّ مركب صعب، فاذا تخاذلنا و قبلنا الراحة فلن يتحسَّن حالنا، " إِنَّ اللَّه لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ".

ان من أكبر معوِّقات تغيير النظام التعليمي هو الضرر الذي سيصيب من عانوا منه ليصلوا إلى مرحلة العلم النافع و الانتاج و الخبرة اذا وصل غيرهم إلى نفس المرحلة من العلم و الخبرة في سنٍّ أصغر و جهد أقل، ثم خافوا ان ينافسوهم في السوق و الاكتشاف العلمي، و هذا يجعل تحسين التعليم أصعب في الدول التي استفحلت فيها الرأسمالية و أسهل في الدول البسيطة التي ترجوا نهضة سريعة هائلة، و لتغيير التعليم في البلدان المتقدمة فلا بد من التدرُّج، فيتلطَّف الأمرُ على المتضررين السابقين، مع انه كل ما سرع تغيير النظام القديم سرع تغيير الحال الفاسد، و اذا تحسّن التعليم كثر الخير و الإنتاج و انتعشت الدولة و تحسن المجتمع جملةً بما يعود بالخير على الجميع، ثم ان المتضررين من النظام التعليمي هم أبناء أهل المجتمع و مستقبله.

" وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُون "

طريقة التغيير

أوَّل الحزم التريُّث، و أوَّل اليقين الشك، و لن توفَّق فكرةٌ إلا بعد اليقين بها، و لا يكون اليقين إلا بعد الاقتناع، و القناعةُ إلا بعد التفكُّر و التمحيص والاختبار، و النظرِ في حجج الخصوم، فينشرحُ القلب مطمئنا إلى الحق على بصيرة، ثم بعد الاقتناع بالقلب يتوجَّبُ القولُ باللِّسان، و نشرُ الفكرة على قلوبٍ من يُؤنَس حلمهم و يُقصَد رأيهم، لعلّ عندهم ما يخالف أو ما يعدِّل الفكرة و يحسِّنها، و ليزيد عدد المؤمنين بها، فاذا انشرح صدرهم إلى ما سمعوا و اقتنعوا فيه نشروه إلى غيرهم ممن يرضون حلمهم و رأيهم، إلى ان تنضجَ الفكرة بمرورها على كثير من العقول، و تنتشرَ في الناس، و انّ قوَّة انتشار الفكرة تكون حسب موافقتها للحق و نفعها للناس، فاذا بلغت عددا كبيرا من الناس بعد ان كانت عند القليل فانها لن تتوقف حتى تبلغ الناس جميعا قويِّهم و ضعيفهم، ثم يكون بعد ذلك التخطيط للعمل و التغيير بدعم الناس و موافقتهم .

و لا يترددنَّ أحدٌ في نشر الحقِّ مخافة لوم لائم، بل يتوكل على الله و يأخذ بأسباب النجاح، كمثلِ راكبٍ في باص الحياة الملئ بالناس، فبعضهم واقف وبعضهم جالس، و عزم ان يساعدهم و يخفِّف كربهم و اشتدت به عزيمة القلب والوجد حتى توعد ان لا يتوقف مهما كلَّفه الثمن، فاحسَّ بغشاوة عرف منها أنَّه في حلم، و لكنه تعجب من تحكمه في نفسه في حلمه! فحاول ان يركِّز كي يوقظ نفسه فاذا به منتبه في شارعٍ بالليل مضيءٍ واسعٍ، و به شباب يمشون، منهم يعرفهم ومنهم جديد عليه، يسلِّم عليهم و يحييهم و يحييه الجدد بسرور أكثر من الذين

يعرفهم، فأحسَّ انه سعيدٌ بالحياة مقبلٌ عليها و اذا به داخلٌ إلى مستشفى ويمشي في ممراته، لا يدري وجهته و يرى الممرضات فيألفهنَّ و يسلِّم عليهن ويانس بهن، وهو يحس انه يمشي باتجاه غرفة فيها الموت بلا تفكير، تفتح له الممرضاتُ المألوفاتُ البشوشات الأبوابَ اليها يُجِبْنَ له السلام و يسلّينه، فلمّا دخل الغرفة اذا بها غرفة عاديّة فيها أمٌّ ضأمّة ابنها معها مغطى، نائمان على السرير فهدأ و عزّا أمَّ الطفل بابنها و قال الله يرحمه فبادرته الممرضة انه لم يمت فتدارك و قال شفاه الله فقالت الممرضة مرضه إلى الموت لا يشفى، فاحتار أيقول رحمه الله ام شفاه الله، ففهم فجأة قلبه سببَ حضوره حيث هو، فكل انسان مصاب بمرض الموت و انه هو ما يدري يقول عن عن نفسه رحمه الله و لم يمت بعد ام يقول شفاه الله و هو لن يشفى عن الموت فاقشعر بدنه موعظةً، فانتبه انتباه اليقظان عن كل ما كان حوله و هو يتذكر قول الشاعر

.كل ابن انثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول.

فرجع إلى عزيمته الأولى ثابتا خاشعا بلا تردد.

إذا أراد المؤمنون بالآخرة من الأمّة قويّهم و ضعيفهم، عالِمهم و جاهلهم، سادتهم و عامّتهم، ان ينقذوا أمتهم و يرضوا ربهم لم يترددوا عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالقلب بحثا و تيقُّنا، ثم باللسان دعوةً و نشرا، ثم بالعمل بعد انتشار الدعوة و اقتناع القادرين، و ان كثيرا من اهل الأرض يتألَّمون و يرجون حلّاً، ينتظرون من ينقذهم من العذاب و الضياع و الظلم.

و انّ على العلماء زيادة، فلا بد لعلماء كلِّ تخصص ان ينتدبوا أعلمهم من العارفين البارعين بلُغة قومهم ليؤلِّفوا كُتُبا في معارفهم و طرق الوصول لمهاراتهم

بلسان قومهم، بلغة بليغة بسيطة قريبة للافهام سهلة التناول و التداول، يكتبون العلم كما خبروه و جرَّبوه و مارسوه، و ما كان من القلب وقع في القلب وسهل استيعابه و تقبله وحبه، ثم يكتبون علوم الوسيلةِ الضروريةَ لفهم علم الغاية الذي اتقنوا، و يكتبون المقدمات و مقدماتِ هذه المقدمات، فيصير للعلم طريقٌ واضحُ البداية و النهاية لكلِّ من طلبه مهما كان سنُّه و سابقُ علمِه.

لن تنتفع أمّة من علوم عصرها أحسنَ انتفاع و لن تتمكن من صناعة العلماء العباقرة المنتجين المخترعين اذا ظلَّت العلوم الحديثة بغير لسانها، ذلك ان الإنسان يفكِّر بلغته الأُم، و لا تتغير لغة التفكير إلا بعد سنين طويلة من استخدام اللغة الجديدة و هجران اللغة الأُم، و لا يوشك العالِم المغيِّر للغته يصلُ درجةَ العالِمِ من الأمم المتقدمة الذي درس العلم بلغته الأُم اذا تشابهوا في النظام التعليمي، ذلك ان المتعلِّم بغير لغته قد أضاع جزءا كبيرا من عمره يتعلم لغة أُخرى، و ربما لم يتقنها مثل أهلها، و يظلُّ فرقُ اللغةِ و ترجمةُ الجملِ في راسه حاجزا بين أفكار العلوم و أحاجيها و بين منطق عقله الذي يفكر فيه، فيتأخَّر أداؤه ويكون حاله أسوأَ من أقرانه من أهل اللغة، وفرصته أقلَّ في الابتكار والاكتشاف، فيظلُّ أهل اللغة التي كُتِبَ بها العلمُ يكتشفون العلوم الجديدة دون غيرهم من منتحلي لغتهم و يكتبون العلوم المُكتَشَفة بلغتهم و يسهِّلون على قومهم تعلّم علومهم و اكتشاف علوم جديدة يكتبونها بنفس لغتهم، ويظلُّ أصحاب اللغات الاخرى ملاحِقين متأخِّرين.

فلا بد من وجود بديل حاضر جاهز إذا أردنا تغيير النظام التعليمي المفسد، و لا بد لذلك من جهد و بَذْل، و إذا كانت الدولة فقيرة قلَّ الاجر المالي في أوَّل الامر

و لكنَّه كَبُرَ الاجر في الاخرة بما لا ينتهي عَدُّه إلى يوم القيامة، و زيادةً طيِّب الذكر في الناس و مؤجَّل عظيم أجر الدنيا عندما يعمُّ النفع في الأمّة.

ولا بد من تنظيم الكتابة بين العلماء الكاتبين لكي تتجمَّع الجهود في عمل واحد مشترك يتفقون عليه لكل علم من العلوم النافعة المتخصصة مثل علوم الطائرات و علوم السيارات و علوم العمارة و البناء و علوم الاتصالات والبرمجيات و علوم التعدين و إنتاج المواد و علوم الحواسيب وعلم الجراحة و علم الامراض والدواء و علوم استخدام الكائنات الدقيقة وعلوم استخدام الحيوانات وعلم القضاء و غيرها من العلوم النّافِعة للناس، و يُكتَفى من علوم الوسيلة و اجزاء العلوم الاخرى بما يحتاجه طالب العلم المتخصص، إلا قليل ممن يختصون في علم وسيلة واحدٍ يحيطون اطرافه و اعماقه دون غيره مثل علوم الدين و اللغة و علم التاريخ و علم الحساب و علوم الفيزياء و علوم الطبيعة و غيرها. و ان كثيرا من متقني هذه العلوم قد اغتربو عن بلدانهم إلى البلدان الرأسمالية يعملون في مؤسساتها و يتمنّون ان يخدموا أمَّتهم في علومهم التي قد لا توجد عند امَّتهم.

و يمكن استغلال الوقت الذي تحتاجه كتابة العلوم المتخصصة ومقدماتها بالتدرُّج و التهيئة لتطبيق النظام الجديد، و ذلك يكون في محاوله تحرير التعلُّم وتقليص العلوم الجبرية و تقسيم الناس بين التخصصات مبكرا، و البدء بتصغير السنة التعليمية الواحدة واختصار شهور السنة التعليمية و فكّ ارتباطها بالفصول الاربعة و التأريخ الميلادي و تقليص عدد السنين إلى ان تقتصر على القليل الذي يهمُّ كل اهل التخصصات من العلوم المختلفة، و تسريع الدخول في الجامعات، ثم بعد استخدام النظام الجديد و تطبيقه يصير القليل النافع الذي كان يتعلَّمه

الطلّاب بالاسلوب الاعمى الجامد جزءً من طريق العلم المتخصص، وتندمج المدارس و الجامعات و تصير شيئا واحدا اقرب إلى نظام تعليم الجامعات ولكنه يحتوي كل العلم منذ بدايته حتى اتقانه و العمل فيه، و إنَّ أهمَّ ما يجب ان يتوفَّر في مباني التعليم المختبراتُ و المعاملُ حيث يطبِّق الطالب العلم النافع، بدلا من الغرف السجنيَّة الكثيرة والتي يستعاض عنها بفيديو من البيت وقراءة من كتاب، واذا كانت الدولة فقيرة فانه لا يضرّ نقص المباني و الحجارة فان المهمَّ في التعليم وجود المعلم المتقن الذي يحرص على تلامذته كأبنائه، و يمكن استخدام المساجد والبيوت للتعليم و التدريب إلى ان يتعلم النّاس ثم هم يبنون المباني .

بعد تعليم الشباب العلم النافع و توريثهم مهارات أعلمِ الناس قبلهم وقد كان محتَكَرا اكثره في الشركات الكبرى دونهم، و كان لا يحصِّله إلا ذو الحظ بعد التخرُّج من الجامعة بسنين اذا قبلته الشركات موظفاً عندها بعد طول انتظار، يضيع بعده اوج شبابه و لا يكاد يتقن مهارة علمه إلا بعد فوت نشاطه، فان جيلا شابّاً كاملا سيكون مستعدا للعمل قادرا عليه، راجيا تطبيقه و الانتفاع به، و يجب ان تُزال كل المعوِّقات من أمامِهم ليندفعوا بدافع غريزة فطرتهم و تحقيق رغبتهم يضـربون في الأرض يحولونها جناناً مريحة كثيرة الخيرات سهلة الأمنيات.

إنَّ الاحتكار غالبا من أضَرِّ المفسدات على المجتمع و عامَّة الناس ومن مسببات البطالة، إلا قليلا من بسيط أنواعها مثل تخزين بضاعة وقت وفرتها وحفظها إلى حين ان تقلَّ و تندرَ فيرتفعَ سعرها، يستفيد المحتكر بالارباح والناس بوجود البضاعة طول الوقت، امّا المشهور الكثير فهو احتكار طائفةٍ من الناس بضاعةً أو خدمة فيمنعون غيرهم من انتاجها، ليربحوا ربحا مريحا لا ينتفع به إلا

الطائفة المحتكرة، و يرتاح هذا المحتكر من همِّ التفكير في تحسين السلعة أو الخدمة، فاذا لم يوجد إلا مصدر واحد اضطر الناس للقبول بالموجود و بالسعر الذي تفرضه الطائفة المحتكرة، فمن كان غنيا اشترى و من كان فقيرا انحرم، و يقلُّ شراء البضاعة لانسحاب الفقراء عن الشراء و الانتفاع، فيقلّ الانتاج عموما ويكسد السوق، و يكسل النشاط عن التحسين و التطوير و الابداع لانعدام المنافسة، و يجلس الناس بلا عمل إلا القليل المحتكرون.

وكان الاحتكار موجودا في مختلف العصور يزيد و ينقص في كل مجتمع حسب نفوذ الطائفة المُحتَكِرة وقدرتها على قمع المنافسين، و عادة ما تكون الحكومة مُحارِبَة للاحتكار لما له من ضرر على المجتمع، وقد يكون الاحتكار مستترا بغير علم الحكومة، و قد يكون بعلمها اذا رشى المحتكرون من أصحاب رؤوس الأموال الضخمة رجال الحكومة بشيء من المال و اشركوهم في ارباحهم وانتفعوا منهم، وقد يكون المحتكرون ذوي نفوذٍ و سلطانٍ ينافس الحكومة ويؤثر فيها، و قد يكون المحتكرون جزءاً من الحكومة يستغلون سلطتها لقمع المنافسين من المنتجين، و كل هذا ضار بالمجتمع هادم للإنتاج، و أحيانا ما تشجِّع الحكومات بعض أنواعٍ خاصةٍ من الاحتكار رغم ما فيها من ضرر على الإنتاج وقتل للابداع لتحقيقِ منافعَ أخرى للمجتمع، و مثال ذلك حال من يكتشف اكتشافا علميّا، فيترك الاختراع والبحث والعلم لفقره وليطْلُبَ رزقَه بما اكتَشَف، فيجد الشركاتِ الكبرى ترحِّب به وتظهر دعمه، ثم يستفيدون من اكتشافه واختراعه ويلاحقون غيره من العلماء يمنعونهم من تطوير العلم بما ينافسهم ويقلل ارباحهم و يحارب احتكارهم، و يسمى ذلك "حقوقا فكرية وبراءات اختراع "

يحميها القانون و تدعمُها الدولةء و ذلك بحجة تشجيع البحث العلمي واكتشاف الجديد، فتعطيه الدولة حقَ احتكارٍ بوثيقة براءة الاختراع ليبيعها لاصحاب رؤوس الأموال فينتفعوا بالاحتكار وينتفع المكتشف بمبلغٍ من المال و غالبا ما يَظلِم أصحابُ الشركات الكبرى هولاء العلماء لضعفهم عن مفاوضتهم، وانشغالهم بعلومهم، و قد يعيش كثيرُ منهم فقيرا، و انه توجد طرق أخرى غيرُ الاحتكار أكثرُ تشجيعا و أحفظُ وجها للعلماء الباحثين المكتشفين، مثل الجوائز المجزية المقدِّرة، ترفع ذكر العالِم بين النّاس و تكثِّر ماله و تنشر علمه، بما يشبه جائزة نوبل وعطاءات الخلفاء للعلماء و قد كان أبو جعفر المنصور يعطي من يترجم كتابا علميا وزنه ذهبا.

ومن وسائل احتكار السوق منع دخول منتجين جددٍ لتقليل المنافسين وتقليل السلعة أو الخدمة فيزداد طلب الناس لها و التنافس على شرائها، فيظل سعرها مرتفعا، و قد يكون ذلك بوضع العوائق و الموانع و الشروط الصعبة لمن أراد دخول السوق، فيصبح شرط الوصول إلى ذلك السوق هو القدره على تخطّي العوائق المفروضة و ليس الأفكار المبدعة في الانتاج أو المهارة العالية في الحرف، وقد يكون العائق ماليا أو قانونيا أو اجتماعيا.

و ان النظام التعليمي اليوم لاحد اشكال العوائق، يعوق الوصول لسوق إنتاج السلع و احتراف الاعمال الأهم للناس، فيقلُّ عدد من يتعلمها و يمكنه القيام بها قانونيا، فجُعِلَ النظام التعليمي بشكله اليوم مع كل تكاليفه و آثاره الضارة على المجتمع عائقا لدخول المزيد من المنافسين لهذه الحرف و الانتاجات وضمانا لتقليل السلع و الخدمات بما يزيد سعرها و يثري أصحابها، فاكتسب النظام التعليمي

الطويل المشتت المانع للابداع المستهلك للاعمار دعمَ مُشَرِّعي القوانين في العالم لتقليل تكاثر البشر، و دعمَ القادرين و أصحاب المهن الأهم للناس ليزيد ثرائهم باحتكار هذه المهن و تقليل القادرين على امتهانها.

ان أصحاب الحرف النادرة و من التزموا النظام التعليمي صغارا و أفنوا فيها عمرا و مالا ليسوا أشرارا محتكرين، بل ان الأشرارَ هم من فرض النظام التعليمي عليهم و على آبآهم و أبنائهم و أفسد مجتمعهم، و ان كان من وصل مرحلة احتراف الحرف النادرة و تعلَّم العلومَ المنتجة من النظام التعليمي أَخفَّ تضرُّرا اذا قورِنَ بمن حُرِمَ التعلُّمَ جملة لقلة مال أو لعدم احتمال، و ضررُ النظام التعليمي و إفسادُه عمَّ المجتمع كلَّه بما فيه من أهل الحرف و العلوم و غيرهم، و عليهم جميعا واجب تغييره، و العالِم بفضله مسؤوليَّته أكبر بقدر فضله، و عليه ان يتقدَّم أُمّته يدفع عنها الباطل و الفساد، و أكثَرُ العُلَماءِ أهل واجبٍ و حق، غيورون على دينهم حريصون على مستقبل أمَّتهم، و هم من يقدر على وضع خطة تعليمية لكل حرفةٍ وعلمٍ منتجٍ عند تغيير النظام التعليمي، " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أو ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أو فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أو تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" وان الخير الناتج عن الإصلاح سيشمل الأمّة كلَّها، و ستفرح الأمّة به وتفتخر بمن سبق من الناس في السَّعي إلى تحقيقه.

من العوائق لاعمال الناس و حريّتهم و إنتاجهم الضرائبُ المفروضة على الأعمال و التِّجارة، و ان الإنسان غالبا سيبدأ حياته ضعيفا بمال قليل، تَثقُلُ عليه الضرائب و تمنعه من المشاركة في الإنتاج و التجارة في الأسواق، و لو تركته

الضرائب و شأنه حتى اذا كَثُر مالُه وقَوِيَ و جمعَ قدرا من المال ينفع و ينتفع به فانه يدفع نسبة ثابتة قلية منه كلّ سنة مرَّة واحدة للدولة لتدعم به من لا يزال ضعيفا فقيرا إلى ان يتعلم و يقوى و يكثر ماله و اعماله فيدفع بعد ذلك نسبة من ماله كلَّ سنة، و هكذا يستمرُّ أخذُ النسبة القليلة من الأغنياء سنويّا ليتعلم بها الفقراء ويعملوا و يجمعوا مالا ينافسون به في اعمال السوق، يقلِّلون الأسعار و يمنعون الاحتكار، و يدفع كلُّ واحدٍ نسبة من ماله مرة كل سنة لصناعةِ أغنياء جدد بها من الفقراء، إلى ان تكثر الأموال و يكثر الأغنياء و يكثر مقدار المال المجموع ويفيض و لا يحتاجه أحد .

تتفنَّن الأمم الرأسمالية في اختراع العوائق أمام الاعمال و التجارة ليظل الفقير فقيرا و الغني غنيا، فوضعوا الضرائب على الدخل الشهري للموظفين وأصحاب الاعمال لكي لا يجمعوا رؤوس أموال يدخلون بها السوق ينافسون الرأسماليين، و وضعوا المكوس على التجارة و البضائع فارتفعت الأسعار على الفقراء الذين لن يكون لهم امل في جمع مال يعملون به، و أخذوا أموال الناس بطباعتهم النقود الورقية.

إنَّه لو قلَّ ما في الأرض كلِّها من النقد بكلِّ من فيها من الناس فكان مثلا لا يوجد في الأرض إلا عشرة دنانير فقط لما سائت أحوال الناس معيشةً، و لن تتغير أعمالهم و توزيع ثرواتهم، ذلك ان العشر دنانير سوف تتقسم إلى أجزاء صغيرة جدا قد تصل إلى مليارات الأجزاء ليصير عددها مناسبا لعدد الناس والبضائع في الأرض، ثم يكون توزع الأجزاء مثل توزيع المليار مليار دينار لو كانت في الأرض و يبقى في الحالتين الأغنياء اغنياء و الفقراء فقراء لا يختلف

شيء، فان النقود ليست إلا وسيلة لتقسيم البضائع و الثروات بين الناس وانما يقرِّر الغِنى و الفقر مقارنةُ و مفاضلةُ ما مع الناس من النقد، فمن كان معه أقلَّ من غيره افتقر، و من كان معه أكثر من غيره اغتنى، فيشهد المال لصاحبه بامتلاك مقدار من البضائع في الأرض بقدر زيادة النقد عنده على غيره.

في عام ١٣٢٤ للميلاد كانت في افريقيَّة مملكةٌ عظيمةٌ اسمها مملكة مالي، وكان مَلِكُها مانسا موسى أغنى من في الأرض، وكان ملكا صالحا محسنا، و قد خرج إلى الحجِّ و عزم ان يتصدَّق على الناس، فكان يعطي النَّاس في المدن التي مرَّ بها متصدِّقا مالا لا يُعدُ من الذهب، ففرح الناس و كثر الذهب مع الكثيرين الذين اعطاهم في القاهرة و المدينة و مكَّة، فلمّا راحوا يريدون الشِّراء اذا بكلِّ شيء قد صار غالياً إلا الذهب و قد كَثُر، و صار الناس الذين لم يعطهم مانسا موسى فقراء لا يكفي مالهم حاجَتَهم رغمَ أنَّهم كانوا أغنياء قبل حضوره، فغضبوا و اختلَّ أمر الناس، و قد ظلَّ الذهب رخيصا إلى ان توزَّع في الأرض .

وقد جرَّبت الأمم الغابرة كثيرا من الاشياء ليجعلوها نقدا يحصل عليه من استحقَّه بعمله و جهده ثم يشتري به ما شاء، فكان الذَّهب و الفضَّة أحسن الموجود، و كان أسوأُ اشكالِ النقود ما يَسْهُلُ إنتاجه فيغتني مُنْتِجه فجأة مقارنة بما مع غيره، و قد استعملت بعض الحضاراتِ قديما حبوب القمح نقدا مقبولا للتَداول البضائع و الخدمات، و لكنّها لم تستمر لأنّها لا يمكنها حفظ نسبة ثراء صاحبها اذا فسدت مع الوقت، أو اذا أكثَرَ زِراعَتَها المزارعون، فقد يزرع المزارعون الكثير من القمح في إحدى السنين فتصير نقود النّاس قليلة مقارنة بنقودهم فيفتقر العامل المجتهد من غير كسل منه و لا تقصير، و يَثْرَى المزارعون.

و قد إختار النّاس الذهب و الفضة لصنع النقد لانهما يصعب إنتاجهما، فيصعب استخراج الكثير منهما فجأة من المناجم، إلا أنَّه قد يجمعهما و يكنزهما مخَزِّنٌ بكميات كبيرة ثم يهجم على الأسواق فجأة يشتري و يغرق السوق بالذهب فتقلّ قيمته و تغلى الأسعارُ على الناس و يفتقر من كان مالهم مثل ماله مثل قصة مانسا موسى و هذا قليل نادر.

وما زالت نقود الناس ذهبا و فضة حتى نشر المستعمرون في العصر الحديث نقودا ورقيَّة يجعلونها مع الناس و يقولون أنَّها بديلُ النقدِ المعدني الذي يبقونه معهم، يَسْهُل بذلك عليهم حصار المُستعمَرين، فلا يشترون من خارج بلادهم بالاوراق التي لا يقبلها غيرهم، و لا يعطونهم النقد المعدني، فلا يتاجرون خارج بلادهم إلا من خلال السلطة المستعمِرة، ثم انه يَسْهُل على صاحب السلطة إنتاج ما شاء من النقود الورقية بطباعتها، فيُقاسِمون ما عند الناس من المال في أي وقت و باي مقدار دون اذن و لا اعتراض.

ثم استمرت الحكومات تستخدم النقد الورقي مستفيدة من خصائصه، ولتطبع النقد الورقي لنفسها تُقاسِم به أموالَ الناس، و أسموا هذه الطريقة في أخذ أموال الناس بضريبة التضخُّم، و قد تزيد سرعة الطباعة و التضخُّم و قد تبطوء بحسب حاجة الحكومات للمال، و أثَرُ ذلك واضح، فالنُّقود الورقيَّة الموجودة مع كل الناس ما زالت تكثر أعدادها و تقلُّ قيمتها و مقدار ما تشتري من الأشياء مع الوقت، يطبعها الأقوياء و يزيدون كميَّتها في الأرض حتى أكثرَ من زيادة الصناعات و البضائع و الخدمات والمزروعات و البشر، و لولا طباعة النقود وتكاثرِها لصارت تشتري الكثيرَ، لان كل شيئ قد توفَّر و كَثُر بعد الثورات

العلمية و الانتاجية و لاغتنى الناس و ازداد الشراء و الانتاج، و لكنَّ الحكومات والبنوك ما زالت تطبع لنفسها كمياتٍ هائلةٍ من الورق النقدي يقاسمون الناس قيمة ما معهم و يفقرونهم فتقلُّ أعمالهم و اندفاعهم، و قد اعلنوا انها اذا كانت النسبة صغيرة فلا خوف من ان يثور الناس و ينبذوا المال الورقي و يهجروه جملةً إلى غيره من النقد المعدني المعروف، فاذا قيل ان نسبة التضخم ١ بالمئة فانه قد ازداد النقد الورقي ١ بالمئة بعد ان ازداد قبل ذلك مقدارَ ما قد ازدادت البضائع المصنوعة و المزروعة و المُستخرَجة بما فيها الذهب، فيكون الماخوذ من الناس أكثر بكثير من الواحد بالمئة من أموالهم، و ان الواحد بالمئة و النسبة التي سبقتها واخفاها النمو الاقتصادي اذا استُقطِعَت من مقدار كلِّ ما في الأرض من النقد الورقي لكثير، و هذه الضريبة لا تفرِّق بين فقير و غنيّ، و لكنها أظْلَمُ على الفقير الذي يشقى لكسب المال القليل، فاذا حاول اتدخاره قاسموه قليل ماله إلى كثير أموالهم، أما الأغنياء فان أغلب أموالهم عقارات و مصانع يزيد سعرها مثلَ كلِّ شيء مقدارَ زيادة النقد المطبوع، فتكون غالبا هذه الضريبة مأخوذة من الفقراء إلى مُصدري النقود والأغنياء، و مع أنّ الذهب أيضا تزيد كميَّته باستخراج ثلاثة الاف طن كل سنة من المناجم، و لكنَّ هذه الكمية لا تلحق مقدار النمو الإنتاجي في العالم، و ان الذهب ما زال يرتفع سعره و يزيد مقدار ما يشتري من البضائع، ولو كان هو النقد لكانت زيادته أقلّ من زيادة البضائع و المنتجات و كان التضخُّم سالبا وللاحظ الناس الزيادة في الإنتاج و اغتنَوا بقليل من النقود .

وإن الناس إذا رأوا انَّ أسعار الأشياء ترتفع خافوا و ترددوا عن توفير المال بالنقود الورقية التي تقلُّ قيمتها، و صرفوها يشترون السلع الاستهلاكية التي تهدر

الموارد و لا تنفع المجتمع، و لم يوفِّروها ليعملوا بها مشروعا منتجا، ثم ان القدرة على طباعة العملة لا ينحصر في الدولة، و من السَّهل على المجرمين مقاسمة الناس أموالَهم بطباعة الورق النقدي، على عكس النقد ذي القيمة الذي عرفته البشرية منذ فجر التاريخ.

انه لا بد للدُّوَلِ أنْ تأخذ أموالا من الناس لتحفظ أمنَهم و العدلَ بينهم ولترعى مصالحهم، و لكن بدون تعطيل أعمالهم و نهب فقرائِهم، حتّى و لو كانت الحجة بناء الخدمات العامَّة لكل الناس أغنيائهم و فقرائهم، و قد يستعمل الأغنياء الخدماتِ المجانيَّة و ليسوا بحاجة اليها، بل قد يختاروا أحسنها بسلطان مالهم، ويصير السيء منها للفقراء، و انه لا يجوز أخذُ أيِّ مال من الفقراء حتى يغتنوا، ثم يؤخَذ من كلِّ من اغتنى و جَمَع مقدارا من المال كافيا للعمل و الإنتاج و التربح مقدارا يسيرا معروفا ثابتا مرة واحدة كل سنة، ليتشجعوا على استثمار أموالهم وتنميتها والمساهمة في الإنتاج بدل كنز الاموالهم ثم اطلاقها فجأة على السوق لتفسد الأسعار.

وأغلب دول العالم تفرض ضرائِبَها على أعمال الناس وإنتاجهم وتجارتهم فتعيقها و تزيد الفقراء ، و يتجنَّبون الأخذَ من رؤوس الأموال مخافة ان يهرب أصحابها إلى دولةٍ أخرى لا تأخذ من رؤوس أموالهم، فقالو رأسُ المال جبان، وليسوا يطيقون هجرة كل رؤوس الأموال من بلادهم، و أغلبُ أصحاب رؤوس الأموال لا يدينون بعقيدة تملك قلوبهم و تثبِّتهم في بلادهم و تمنعهم عن غدرِها رَغم كلِّ سنوات التَّعليم القهريَّة الجبريَّة ، وإنَّه لن تُفلِحَ دولةٌ بالعدل في توزيع الأموال و تصليح الأحوال بامتلاك أجساد النَّاس و فرض القوانين كرها، و لا بدَّ أنْ

تمتلك الدولة قلوب أبنائها برضا عُقولِهم عنها و ايمان قُلوبِهم بقوانينها، فدولةُ الحقِّ و السعادة مملكة القلوب لا مملكة القهر.

وأغلبُ مصارف الضرائب المنهوبة لا يستفيد منها الناس، فتُنفَق على التجارات و الخدمات الحكومية العامَّة بقليلٍ ضبط و كثيرِ هدر و سوءِ توزيع، ويُنفَقُ الكثير لطلب الامن و السلاح لقمع من أُغرِي و ضَعُف فأجرم، فاذا توقف الهدر و الإهمال و إفقار الناس و اغراء المجرمين انصبَّت هذه الأموال إلى التنمية ومساعدة الفقراء إلى ان يغنوا و يساعدوا غيرهم.

وانّ الدولةَ حافظةٌ لمالِ الناس و قاسمةٌ للزائدِ منه بينهم، و ليست تاجرةً تنافسهم و لا جابيةً تقهرهم، و انَّ مالكي المال العامِّ كثيرون يستاثر كلُّ واحد به لنفسه و لجماعته و غالبا ما يحظى الأقوياء بالنصيب الأكبر و لا يحبون الرقابة ويعارضونها و هم أصحاب الرأي و القوة، فاذا قلَّت الرقابة كثر الهدر و الإهمال، ثم ان الدولة اذا تاجرت في مجال أفسدته على كل الناس بالهدر السهل الذي يصعُبُ منافسته فيقلّ العاملون في هذا المجال من الناس و يقلّ الذين تأخذ منهم الدولة المال سنويّا، ثمَّ تفسِدُه بالاهمال والكسل الذي يتبع الاحتكار ولا يُعجِب المُشتَرين، و الاحسن للدولة ان تُحرِّر الناس و تتركهم يعملون و تتدخّل فقط لمنع الظلم و الاحتكار و لأخذ النسبة السنوية القليلة الثابتة، و لا تتدخَّل في التجارة أو سلب أموال الناس إلا للضَّرورة فترة محدودة، فقد تتدخَّلُ في تكفُّل تعليم الفقراء من أموال الناس بالقصد اذا فنيت أموال الدولة الماخوذة سنويا من رؤوس الأموال، و تحاول ان تُخفِّض أسعار التعليم بالمنافسة مع الناس .

ولتقليل المال المهدور على حفظ الأمن و قمع الإجرام فانه لا بد بعد العدل بين الناس من ردع الاجرام و هو لا يزال أفكارا في رؤوس الناس، قبل ان يحدث ويعُمَّ ضرره ثم تصعب ملاحقته، و قبل ان يروِّع الناسَ و يمنعهم عن الانتاج، من خلال العدل و الاصلاح ثمَّ العقوبات الواقعة الرادعة، فيرتعب المجرمون قبل اجرامهم و يمنعهم عقابٌ واحدٌ عن كثير من الاجرام، و يوفَّر المال المصروف على مراقبتهم و قمعهم إلى التعليم و التنمية.

ومن عوائق الإنتاج و مفسدات السوق الرِّبى، فاذا عزم الشاب العالِم المنتج العمل و الإنتاج و لم يجد مالا فانه سيبحث عن من يعطيه ماله ليعمل به، و يعطي هو صاحبَ المال جزءا من الارباح بعد الربح، و ان الصناعة و التجارة و الزراعة مربحة تنمي المال و تنفع المجتمع و لكنَّه يُحتَمَل ان لا تربح التجارة لظروف سيِّئة أو لجهل في التخطيط، فاذا لم يجد العامل من يدعمه بالمال و يضارب معه في مشروعه فانه قد يستدين، و ان الدائن اذا ضمن ماله فانه لن يهتم بنجاح المشروع و ربحه بل قد يتمنى ان يفشل المشروع و لا ينسدَّ الدين اذا كان رهن الدين قيِّما يطمع به الدائن.

في عام ٢٠٠٨ كان الناس في الولايات المتحدة الامريكية يشترون بيوتهم بالدين المرابى من البنوك، و يرهنون البيوت عند البنك لياخذها اذا لم يأخذ دينه مع الربى، و كانت أسعار العقارات و البيوت تزداد من طباعة النقود و التضخم، فلم تهتم البنوك بسداد الديون طَمَعا بالبيوت المرهونة، و شجعوا الناس على الشراء فوق قدرتهم بالدَّين، و كلما تهافت الناس يستدينون ليشتروا البيوت تنافسوا عليها وارتفعت أسعارها أكثر، فكلَّما فشل احدٌ في سداد كل ما عليه أخذ البنك البيت

منه و باعه و ربح منه، إلى ان امتلك البنك بيوتا كثيرة، من كثرتها لم يستطع ان يبيعها فبدأت تنخفض أسعارُها و يخسرُ كلّ من اشترى بيتا، وصارت أسعار البيوت اقل من المال الذي اشتراه به الناس من مال البنك و عليهم سداده له، فقد صار عليهم ان يدفعوا مبلغا كبيرا للبنك اكثر من سعر البيت المرهون، فتعذَّر كل الناس عن سداد ديونهم و أعطوا بيوتهم إلى البنوك، فرخصت البيوت اكثر ولم يستطع البنك بيعها، و لم يتوفر في البنوك مال للناس الذين كانت أموالهم فيه، فاعلنت بنوكٌ كبيرة افلاسها تباعا، و تبرَّؤا من أموال الناس و الشركات، فخاف الناس على أموالهم و هرعوا إلى البنوك الاخرى يطلبونها قبل ان تفلس هي أيضا، وهم بذلك يسرِّعون إفلاسها بأخذ أموالهم منها، فلم تتوقف أزمة الهلع و إفلاس المؤسسات الرأسمالية الكبرى إلا بدعم البنك المركزي الأمريكي لهم من مال الناس و بطباعة كثير من الدولارات، و زاد فقر الناس الذين كان مالهم الدولار من داخل البلاد و خارجها .

وما زال خليط الربى و ضرائب التضخم تدفع الناس إلى الشراء فوق قدرتهم، لان الأشياء يزيد سعرها بالتَّضخُّم، و الدَّينُ من البنوك مصدر سهل للمال، و إنَّ الذي يشتريه الناس بالربى لا يكون مفيدا منتجا، لان الأشياء المنتجة تحتاج وقتا حتى تربح، و يزيد الربح غالبا كلما طال الوقت لتحضير المعدَّات و البنية التحتيَّة للمشاريع، و الربى لا ينتظر وقتا طويلا بل يزيد و يتعاظم كلما طال الوقت فيكون الربى أشدّ و أَقسى على المشاريع الأنفع للمجتمع أعوق لها من غيرها، بما يمنع كثيرا من المشاريع الناجحة النافعة للناس، و لو تدخَّلت الدولة بمنع الربى لاضطرَّ أصحاب الأموال إلى المساهمة في المشاريع و نفع المجتمع ليربحوا و لا تاكَلَ

أموالَهم الزكاة السنوية على راس المال، و من لم يرد المساهمة و الإنتاج فان له ان يُقرِض فقيرا بغير ربى و بذلك لا يؤخَذ منه مالٌ إلى ان يرجع له ماله.

أساسُ إصلاح أمور الأمّة تعليمُهم العلم النافع و مهاراته و القدرة على تطويره من أوَّل عمرهم، و تعليمهم عقيدة الحقِّ المقنعة للعقلاء المالكة لقلوب كلِّ من سمعها، ثم بعد ذلك بإزالة العوائق من أمامهم لاحياء الانتاج و اعمار الأرض، ولا بد ان تؤخذ عوامل الاصلاح كلها معا لا بعضها، بانشاء الشباب العلماء القادرين العازمين، و منع الربى، و حفظ حرمة أموال الناس بإلغاء المكوس على التجارة و الاعمال بما يشمل التضخُّم، فلا تبقى إلا الضريبة القليلة التي شرعها الله على مال الغنيِّ مرّة واحدة كُلَّ سنة.

ان قادة الرأسمالية لن يرضوا ان تَترُكَ أيُّ دولةٍ اتِّباعهم، و سَيتَّخِذوا الحجج و يسوقوا التُّهَم ليمنعوا عن مخالفتهم و عصيان مبادئهم، ثم يحاصروا مخالفيهم بمنعهم التجارة ليُفقِروهم و يَكسروهم، و اذا لم يفلحوا حشدوا أسلحتهم وخوفوا شعوبهم بالكذب ليقاتلوا معهم، و ان شعوب الدول الرأسمالية لأكثر الناس تأذياً من ظلم قادتهم و جور قوانينهم، و ان اختيار القادة و القوانين في الدول الرأسمالية غالباً بالانتخاب، فاذا تنبَّه الناس إلى قهرهم فلن يدعموا قادة الرأسمالية على طغيانهم واستبدادهم، لذا فلا بد من التدرج في مراحل الامر بالمعروف و النهي عن المنكر بالبحث و الدعوة و النشر بكل الطرق لتكثير الداعمين للفكرة حتّى من أهل الدول الرأسماليَّة المظلومين المنهوبين و منع خداعهم، ليتهيَّأ الجوُّ للعمل، وبعد ذلك اذا اصرَّ قوم على طغيانهم و أجبروا شعبهم على رأيهم و خالفوا الحجج المقنعة للعقل المستميلة للقلوب وحاربوا من يريدون الخير لهم و لانفسهم و لكل

الناس، فإنَّ الإبتكار في العلوم هو السلاح الأقوى بعد العقيدة المحقَّة، فالاسلحة تتطور و تتغير، و يصير السلاح الأقدم بلا نفع اذا ابتُكِر سلاح ضده، و يُلقى خردةً مهما كان قد كلَّف صنعه .

ان الحقَّ لا بد ظاهر و إنّا نرجوا الله ان يستعملنا في إظهاره و ان لا يستبدلنا " هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ".

****

المراجع

- THE HISTORY OF EDUCATION by prof. Ellwood Patterson Cubberley
- بيت الحكمة في عصر العباسيين د. خضر أحمد عطا الله
- Identity: Youth and Crisis Erik H. Erikson
- Childhood and society Erik H. Erikson
- العقد الفريد للفقيه أحمد ابن محمد ابن عبد ربه الاندلسي
- مقدمة ابن خلدون
- السياسة الشرعية في اصلاح الراعي و الرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية
- Fall of civilization podcast
- International relations 101 full course, by dr William Spaniel
- Power and politics in today's world , lectures by Professor Ian Shapiro , Yale university
- سلسلة محاضرات علم النفس التربوي للأستاذ الدكتور محمد وفائي الحلو من الجامعة الإسلامية في غزة
- Dr Azevedo Econ lectures on principles of microeconomics , principles of macroeconomics and of intermediate microeconomics
- Finance lectures on khan academy
- Financial markets (2011) with Robert Shiller , finance course from Yale university

- سلسلة محاضرات المعاملات الإسلامية المعاصرة في الإسلام للدكتور زياد إبراهيم مقداد من كلية الشريعة و القانون في الجامعة الإسلامية بغزَّة
- سلسلة محاضرات مباديء الاقتصاد الإسلامي، أ. كمال الهندي من كلية التجارة في الجامعة الإسلامية بغزَّة
- Wikipedia , google , YouTube

****

محتويات الكتاب

مقدمة..... 5
تاريخ تقدم العلوم ومسهلاته و معرقلاته 8
تحصيل العلم..... 10
أصل المدارس و الجامعات 13
هدف المدارس 14
أسباب الحروب 20
قيادة أمريكا..... 28
قلَّة الطعام و الحروب و المدارس 35
الاقتداء بالامم القوية 37
أصل الابداع 45
المحتوى العلمي 61
وهم التفضيل بين العلوم و الاختيار بينها 64
عوائق تغيير النظام التعليمي..... 66
طريقة التغيير 67
المراجع 85
محتويات الكتاب 87

دراسة تربوية اجتماعية
إخطارُ الدارس بأخطارِ المدارس
مجاهد المومني
الطبعة الأولى
1445 هـ 2024 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.